جامعة الطرائف

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م
ردمك 978-9947-79-372-5 : (ISBN)
التوزيع الدولي: مصر، لبنان، الأردن، العراق، السودان

اسم العمل: جامعة الطرائف (سلسلة شقائق ماس)
اسم المؤلف: إسماعيل رحالي
تصميم الغلاف: محمد إسلام
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 033 85 65 75 / 0666 76 28 50

المثقف للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

المثقف
للنشر والتوزيع

بيلومانيا
للنشر والتوزيع

جامعة الطرائف

رواية

إسماعيل رحالي

إهداء

باسم الذي خلق فسوى

باسم كل من أنجب بذرة وسقاها خيرا وبركة،

وباسم كل ناجح سلك درب النجاح والتألق

أود أن أبلغ كل الشكر والتقدير لأمي جنتي ونور

دربي، وأبي مدرستي فالحياة، وكل نجم كان

ضوءه ساطعا في دربي وأخص بذلك جملة من

النجوم التي تعز عليّ: صارة (ب)، عبير(خ)، عزالدين

(م)، عبدالهادي(ق)، عبد الباقي(ه)، قاسم(ط)،

ومحمد(ب) ومنيرة(ب) لكم أجمل التمنيات سدد

الله خطاكم وأنار الله دربكم، ربما هي كلمات

صغيرة الحجم ولكنها نابعة من القلب النقي، ولن

أنسى بالذكر سكان مدينتي "بريزينة" و سكان

ولاية البيض عامة

فتهذيبا لغموض خواطري والتي خضت فيها كسائر مغامر في درب البلاغة أعلنت تزاوج ما حفظ منها في لون أدبي تقرر أن يروى للقراء، رافعا القبعة إلى عرابي البلاغة شمائل، وبدفء الراحة أضرب ضرب الإمتنان موضع القلب إلى الذي لا يعلى عليه؛ وحي السماء.

بعد المقدمة القصيرة الخاصة بي أأخذ بإذن لبرمجة نظرتك الأولية أيها القارئ، وهذا على الطريقة السنيمائية الإحترافية علّه يروقك ولن يستغرقك، لكن في هذا أظن أن للعلم سابقة حيث يقدم إليك نظارة بتقنية عرض ثلاثية الأبعاد حتى تستشعر الخيال بجدية.

كأني بانطلاق لكاميرا التسجيل المنزلقة والمميزة بميزة المسح الشامل، فهي تأخذ حريتها من موجهها خلال كامل الإتجاهات، هنا في صورتنا المختارة تنسدل تلك الكاميرا حتى تتوازى بعدستها أمام شاهدة الضريح الموسومة بوسام شهادة وهذا ليس للعيان، من ثم يُلتقط صوت تخليل مياه بالأصابع جيئة وذهابا لتفريغها تساويا في مسح أفقي اتباعا لنهج حاملة جرة الماء، فيداهمها مهب الرياح المتلهف لمشاركتنا يبعثر عن شيخة الأوردة كوفيتها فتستوي بقامتها من انكسارها تعيد بها إلى كتفها، ثم أشرقت الأخيرة ببرهة على شمل الأرنب البري يغادر من نزهة محفوفة المخاطر، ليلتف بها الضعف الذي أحاطها حتى ضُمت اليد إلى الفيه تأخذ بالعبرات مرتجفة الشفتين تهز بالرأس نفيا "ضمني إليك يا

شـهيدي فقـد غـادراني" .

توأمـةُ غـير طبيعيـة ونظـير ذلـك الدراجـة والنقالـة لَصيقتهـا، تلزمنـا الوالـدة اسـتئمان أخـوة الرحـم بيننـا، وتنشـدنا مـن عبيرهـا عـلى وسـائد النـوم قصـة ميلادنـا في ذلـك الـدفء مـن حينـا العتيـق؛ الـذي وآلم ربيـع أهاليـه و أفراحهـم..

لم ننـل تعليـما حكوميـا كبعـض أقراننـا وأترابنـا، إلاّ أن نشـأتنا خالفـت ميلادنـا في قسـوة شـديدة ولم تكـن إلاّ لهـدف مـا، فالـذي تبنـى صلابتنـا معلـم ومدرسـته، هـو صديـق والدنـا دفـين الـثرى ومقـدم عنـد الملـك كان يتكلـم وسـوطه تزامنـا...

"ستنزف ستنحف ها هي الطبيعة كفيلك فارتجل... "

ثم يدنو منك ويهمس: "فليركن عقلك إلى ذهنك حتى يذكرك من أكون"

19 ربيعـا أصبحـت أرى فيهـا أخـي المنفعـل تكامـل إقدامـا وعزيمـة بـل أضـف عـلى ذلـك أنـه تميـز عـن سـائر الطـلاب، حتـى أضحـى عينـا ويمينـا لمعلمنـا هكـذا كنـت أدعـوه. انفـرد أخـي بدراجتـه الخاصـة الآن، وحـالي حال عامـل الصيانـة قائـم بالبـاب صباحـا أتمـم إصلاحهـا وصيانتهـا لأجلـه، فهـي مهنتـي الجديـدة عـلى كلً، هـذا حـدث بعـد أن انخرطـت بورشـة مـن الحـي الـذي نسـكنه تـبرع في تصليـح العربـات والدراجـات وغيرهـا... عـذرا نسـيت التحـدث عـن عشـقه الـذي أرتمـى إليـه ولم أقـل وقـع فيـه، لأنـه يبـدو في نظـري ناجحـا؛ تلـك الفتـاة تكـون بنت الجـار في انتظـار توصيلة إلى مدرسـتها، وأثنـاء الطريـق يتطاربـان غـزلا ومزاحـا ثـم بعـد أن ينزالهـا بمحطتهـا؛ يتجـه مبـاشرة إلى المدرسـة خاصتـه والمعلـم بالضفـاف الغربيـة لمراعـي المدينـة

ومزارعها أتكلم عن المدرسة التي مضى عليا السنتين تقريبا مذ غادرتها. وأثناء سيري أتتبع امتداد ظلي الذي يتقدمني في وجهة صباحية معهودة، راحت تعكرني البقعة الداكنة التي استوطنت ذاكرتي في وقفات متقطعة بمحطات من الماضي القاسي الذي مورس خلالنا، وكل ما تذكرت تأججت أحقادي مجددا اتجاه المعلم الداهية. أخيرا وصلت إلى الورشة والقابع أمامها على كرسيه السيد (أجور)؛ مالك الورشة يتصفح يوميته ويرتشف قهوته، حييته بتحية الواقف على الجالس :" السلام عليكم"

فيرد تحيته المعتادة:" وعليكم السلام ورحمة اللّه.. كيف حالك(ربيع).. تبدو نشطا اليوم "

هذه الأخيرة، عبارة كانت تتكرر على مسامعنا تحميسا وتحفيزا للجد في شغلنا اليومي أنا وزميلي (فضيل). توجهت إثرها نزولا إلى المستودع بالطابق التحتي أو القبو، هكذا ندعوه غير أنه يشرف ببابه من الجهة الخلفية لمبنانا على شارع ثان يدنو كثيرا من مستوى شارع الواجهة. وانحداره ذلك يساعد في إدخال السلع والبضاعة، أثناء محاولتي تشغيل إنارته وجدت المصباح تلف، فأرجعني ذلك لأحمل القنديل وأنزل به ثانية أوازن بيدي حذر السقوط، وفجأة تلقيت صرخة (فضيل) المرعبة التي اندس بها في الظلام يتعمد الترهيب، ثم ارتمى بعدها إلى كتفي يلقي دعابته بمقربة من أذني... أخذ السيد (أجور) بدوره في إرجاع القاطع التفاضلي إلى وضعه ينير لنا المستودع، ثم تبعنا عبر الدرج في إضافة غير مسبوقة.. انطلق بالتصفيق والترديد مع (فضيل) "سنة حلوة يا (ربيع)... سنة حلوة يا جميل" ، حملاني بذلك على التصفيق والترديد

معهما بوجه مشدود الإبتسامة والضحكات، ما كنت قبل ذلك أذكر أنها ذكرى ميلادي أو حتى موعدة تخصني، لأستدرج من السيد(أجور) بعد الفراغ من الحفلة المصغرة إلى الفترة الأكثر تشويقا، يشد بيدي يقودني و(فضيل) يحجبني استراق النظر، أرخى الأخير شدّه في نقطة ما وأشار عليّ بفتح عيني، هيكل حجب بغطاء سحبته عنه بلهفة؛ دراجة معدلة لامعة بعادمين، عانقت السيد (أجور) ودموع الحسية تنزلق وتفر من عيني، كما تفضل (فضيل) برمي حفنات الورد المعطر. أخذت جولتي ألف حولها وأسأل السيد (أجور) عن سر الهدية وذوقه الرفيع ،تمهل أنفاسه وقدم إجابة مرتبة بأناملة في شاكلة أسباب " لقد استدنت من والدك في الحرج من أيامي بوقت مضى ولم أستطع إيفاءه، فتنازل عني القضاء تكرما منه." مشيرا بسبابته يعلن السبب الأول " أما عن تلك الدراجة فهي دراجة شبابي، قمت بتعديلها وعصرنتها في بيتي، أهديتك إياها إكراما لتفانيك وجهدك المقضي خلال العامين المنصرمين، وقد استحق ذلك شيئا من الثناء، أما الآن فلم يبق لي إلاّ أن أقول لك انطلق مستمتعا بالهدية في جولة تنتهي بها إلى والدتك والعائلة فهم في انتظارك " في الثانية أضاف وسطاه، بهذا كان سببين وجيهين من نظره لتقديمهما، فربتت على كتفه حتى أحظى بعناق ثان وهذا ما كان. بعدها ساعدني (فضيل) على الإرتقاء بالدراجة من خلال الميلان الأرضي حتى أشرفت بها على الشارع، ثم ناولني الخوذة، رفعت سحاب بذلتي أنطلق في تجربة أولية لمحرك بعادمين. انتهيت إلى شاهدة المدينة الشاهقة ثم ركنت جانبا أشحن بنسيم بارد يحمل رطوبة البحر. شيء

مـن الحـماس اسـتيقظ لأرفـع المسـند مجـددا والوجهـة والـدة أشـاركها هديـة السـيد (أجـور)، وصلـت وركنـت خلـف شـجيرات الحديقـة الأماميـة، هـذه المـرة فضلـت الدخـول مـن البـاب الأمامـي، طرقـت وانتظـرت ففتحـت البـاب

" والـدتي تقابلنـي بعنـاق " لقـد كنـا في انتظـارك يـا بنـي

" تأم أمت استفهاما مني "أمممممم؟؟ ... (ربيع)....لقد جئت في وقتك

"فرددت "ماذا؟؟

" أحزر ماذا..اليوم ؟؟.. الشهر؟؟".

ثـم أطـرت وجههـا المسـتغرب بمسـند أصبعيهـا وأردفـت :" قد أمسـت الورشـة.

" تشـغلك عـن أهـم مواعيـد العائلـة يـا ربيع

في تلك اللحظات انفلتت بعض الضوضاء من المطبخ وانغمرت بمسامعنا ..

فعقـدت حاجبـيّ مماطـلا لتجيـب:" إنهـا ذكـرى ميلادكـم، فقـط لا تقـل أنـك نسـيت ". حينهـا أخـذت بابتسـامة عميقـة ورفعـت علامـة إيحـاء إليهـا فضحكـت وقالـت :" طبعـا لم تنـس، والآن هيـا إلى المطبـخ لتقابـل طباخنـا الجديـد ومسـاعده"

هـو أخـي بمئـزر المطبـخ وقبعـة الشـاف، وكـذا بنـت الجـار ضيفـة مطبخنـا ومسـاعدته، حييتهـم قائمـا بالبـاب.

فـيرد (شـهاب) "أهـلا أخـي هيـا ... هيـا أسرع لقـد وصلـت مـع دورك" نـزع عنـي معطفـي وناولنـي سـلة البصـل الأحمـر -ههـه - ثـم قـدم لي السـكينة وأردف :"لمـا تنظـر إليّ، هيـا بـاشر التقطيـع." مـلأ السـكون عينـا والـدتي، وهـي تثنـي ذراعيهـا وتسـند رأسـها إطـار البـاب ولسـان حالهـا يقـول: " قـد نضـج أولادي ولا زالـت تلـك الأرواح الطاهـرة تسـكنهم، وهـو كـما رجوتـه تمامـا يـا

اللّـه"

حرقـة تقطيـع البصـل والضحـكات السـاخرة مسرحيـة مطبخنـا اليـوم، أزيـل سـيل الدمـوع إلى أكـمام ذراعـي جانبـا، يجعلنـي أنغمـس في خيـال أمـي الواسـع وشرودهـا.

ذلـك الـشرود الـذي لم يحمـل يومـا إلاّ مـيراث والدنـا الملقـى عـلى كاهلهـا خـلال سـنوات.. يطـوق أحاسيسـها في حلقـة مغلقـة، هـو حقـا ليـس بالحمـل السـهل ولا حتـى الوصيـة وتنفيذهـا بـأن تقـدم فلـذتي كبدهـا إلى مدرسـة المعلـم، وذكـرى الأيـام الأولى نهـرب إلى أحضنهـا منـه فيسـحبنا بعنفـوان "هؤلاء رجال السيد (ظاهر) -والدنا قصده-."

قاطع شرودي الذي على شرود والدتي قرع بجرس الباب،

توجهـت أمـي لفتـح البـاب و الترحـاب " أهـلا ومرحبـا بـك أيهـا المعلـم هيـا تفضـل بالدخـول "

التفـت إلى آخـي أراه يوجـه الكلـمات إلي وبـه ابتسـامة تتهلـل :" إنـه المعلـم" ثـم نـزع المئـزر ورمـاه نحـوي "سـأعود"

صوبـت أنظـاري الحانقـة أمامـا؛ أضغـط أضرسي وفـكي يـبرز ناجـزه... لم أنـس بعـد مكرتـه الأخـيرة بي وطـرده المفتعـل لي مـن المدرسـة، ودسائسـه وخفايـاه.

اسـتندت إلى يـدي مطأطـأ رأسي وبعـد أن فـرغ المتطفـل مـن ترحـاب عائلتـي واسـتقر بغرفـة الجلـوس.

دخلـت الوالـدة المطبـخ فواجهتهـا بنـبرة عاليـة: "مـا الـذي يفعلـه هـذا الرجـل هنا؟"

ليتدخـل أخـي يسـتثير بـدوره :" كـم مـرة أخبرتـك يـا (ربيـع) أن مـا مـضى قـد

مـضى. دعـك مـن الـكلام الفـارغ الآن".

والوضـع كلـه اسـتفزاز فأسـعر مـا بي مـن غضـب ليتعـالى صـوتي مجـددا :"لا تقـل لي هـذا، أبعـد كل تلـك السـنوات كان يخفـي عنـا مـوت والدنـا ،ولا أسـتبعد أنـه يومـا مـا سـيفعل بـك المثـل لعنـادك ، كل هـذا يضـاف إلى الـذي اسـتجرأني عليـه ، وأنـت الأدري "

أخرجنـي ذلـك مـن البيـت وكلي انزعـاج، تتبعنـي والـدتي إلى الباحـة الأماميـة، و ربمـا أثـرت عـلى أحاسيسـها بالتذكـير مجـددا بوقعـة أبينـا فبـادرت بنـزع الغطـاء عـن الدراجـة وأخبرتهـا: "هـذه المفاجـأة التـي أفسـدها ذلـك الرجـل؛ إنهـا هديـة السـيد (أجـور) "

بعدها انطلقت بذهن مشوش يأبى أن يجالسه الصفاء .

امتزجـت كل الأفـكار في قوقعـة رأسي، حتـى أني أجهـل وجهتـي شـعورا وفعـلا، أسـير بمحـاذاة الميناء إلى أن انتهيـت لظـل تلـك السـفينة العظيمـة. ركنـت في حركـة عشـوائية، وأزلـت القبعـة أرميهـا كي أسـتكمل أنفـاسي أركل حجـرا وأصرخ إلى أن اجتاحنـي البـكاء.

ظـل يمتـد ناحيتـي عـلى مقربـة مـن عمـود الإنـارة، دنى منـي خاضعـا وشـد عـلى كتفـي إنـه الجـنرال فـقء العـين: " هـول عليـك بنـي "

ثم راح يسحبني ويلملمني إلى مقعده الذي لازمه لسنوات.

وهـو يرتـد بشـبه ابتسـامة ويقـول: " لقـد رأيـت الكثـير ممـن يدفـن أحزانـه بالحجـر، أو يرميهـا كأسرار معلقـة في الزجـاج " ثـم وبتحـسر أضـاف "إنمـا هـي دنيـا ومعـترك صعـب للإنسـان".

اكتفيـت بالإصغـاء لـه عليـه يحمـل قصـة أو موعظـة، ولم أقـدر عـلى مراجعتـه

مقدماته.

"هـذا متنفـسي وهنـا صحبتـي ورفقـائي، فـماذا تـراه يفعـل عاجـز قـصرت أعضائـه وأحيـل إلى التقاعـد، فأصبـح يتأمـل جـراح أنـاس وسـعادة آخريـن. هـل أنـا شـاكر لخروجـي مـن الحـرب كالأوائـل، أم المتطلـع للظفـر كالآخريـن؟ انتهـاء خـبرتي العسـكرية وجلـوسي ومقامـي هنـا زادني معرفـة بأحـوال البحـارة والملاحـين، بـل صرت المسـتقرأ لسـماهم إذ تتبـدى سـعادتهم كلـما عـادوا غانمـين، وتـرى تهللهـم عـلى مـد مـن هـذا الأزرق.

أمـا إن أطالـوا الغيـاب فأراهـم ينتشـلون أنفسـهم وأجسـادهم مـن خيباتهـم لكنهـم لم يستسـلموا البتـة.

ومـا عـلي إلاّ أن أرمـي صنـارتي حتـى أواسـيهم، فقـد تسـجل أغلبهـم في قاموس صحبتـي.... لكنـي لم أر مثيـل حالـك إلاّ أوداه عشـق مـوءود أو قريـب مفقـود، كلمنـي لأرى بنـي."

أخـيرا قدمـت ردا بمنطـق تفنـده ملامحـي :" البحـر ليـس بالبخيـل عـن الملاح، إن هـي إلاّ سلسـة حيويـة تأثـرت بعامـل الطبيعـة ولا تنقطـع لأن لهـا مسـير مبـدع... يرتجـي بالدعـاء وييـسر الأسـباب فيحمـل أمـال اليـوم الجديـد. بالبارحـة لم يصـب... اليـوم سـيكون لـه النصيـب.

إن قلـت أن إرادة الإنسـان هـي الأقـوى سـأكون بذلـك مناقضـا لنفـسي، وهـذا الـذي بي إن هـو إلاّ ضعـف ظاهـر لفقـدان والـد لم تسـبق لي معرفتـه ولا رؤيتـه، غضبـي يبـدي حقـد الاطـلاع. عـلى مـن أظنـه سـببا في يـوم مـن الأيـام لفقدانـه."

اسـتغرقت برهـة صمـت المتحدثـين في خضـم تقلـب موجـات الشـاطئ، التفـت

صوب الجنرال الذي شدّه ساري تلك السفينة، يزفر بقوة:" احتسب فقط بني، فلكل منا فقدان وشوق... أخيرا الصلح قد حل، وعودة الوفد المبعوث تبشر للقاء وموعدة أعقبتها أل 19 سنة المنقضية "

-"عن أي صلح و أي لقاء تتحدث يا جنرال؟"

-"معاهدة الصلح التي ستوقع مع مملكة 'كانتيا' "

-"ومنزلتك من ذلك ؟."

-"كل المنزلة فخلال الحرب التي شهدتها بلادنا مع 'كانتيا' بالواجهة البحرية المقابلة لنا أقتحمت التجنيد بسن مبكرة، فتفوقت وألزمت الجوسسة والعمالة لصالح مملكتنا 'كاسانيا'. ب'كانتيا ' قد تعديت الأوامر الصارمة لقادتي، و خضعت لشتات روحي فوقعت في الحب باشتداد الحرب وأنا بهيئة الطالب آنذاك. كنت قد تعرفت إلى تلك الفتاة من إمارة 'راسين' النازحة من الشمال إلى العاصمة، تزوجنا خفية ولم نلبث أن كشفنا، بعدها سحبت من مهمتي وغُيّر منصبي، فأحال على رأس كتيبة من الجنود مجددا، خضت بذلك أخر معركة رفقة بلادنا في عرض هذا البحر بنية الإستعمار لتلك المملكة حتى أسترجعها، لكن القدر سابق، فانتهت المعركة بحطام لكلا الأسطولين في عرض البحر، وفقدت إثرها عيني وساقي متمنيا الموت خلال المعركة التي راح ضحيتها كل أفراد كتيبتي، عدت من غيبوبة عميقة أجد بعدها بلدنا عقدت هدنة لما يقارب العقدين وبحدود مغلقة، في حين كانت هذه السفينة تبنى أمام ناظري يوما بعد يوم على أنها أملي والوفد المبعوث، لأنها ستحمل أول رحلة تكسر القيود، وحتما سأنطلق متنها ولو لفضت خلالها "

-"أأسف لحالك حق الأسف يا جنرال، فألم الشوق أعمق جرحا من الفقدان"

-"يا بني أحسن اللّه عزائك لفقدانك، ولكن لا تنحني أبدا واشمخ لشبابك وتعقل، فإن خيرة قامات البلد ستكون منكم أنتم الشباب إن أحسنتم القرار. ولا تستبق الحكم مهما المواقف، وكن سندا لأقاربك فإنهم القوة ما اجتمعتم حول أصوبكم قرارا"

-"لقد تأخر الوقت بي يا جنرال، وأخشى من قلق الوالدة عني لذلك استسمحك الآن، وليجمعنا مجلس آخر بيوم ما، ووعدي قائم بالدعاء حتى تلتئم جراحكم هذه وينتهي فراقكم في القريب العاجل، إن شاء اللّه."

رجوعي لم يكن إلاّ في ذلك الوقت المتأخر فتحت الباب بروية ثم التفت لأجد والدتي في الرواق العتم تنتظرني، بدموع ساخنة تعانقني :"أين كنت يا بني؟ لقد تبع أخوك أثرك فلم يجدك... ازداد قلقنا عليك"

كان لا يزال الضوء الخافت في غرفة الجلوس حيث أخي وبنت الجار لزالا بالإنتظار، أمّا المعلم فكان قد رحل. سلمت عليهما وجلست أتغاضى عما مضى وبدر، يزيد أخي من فرجة السهرة بنكاته وحكاياته لنتسامر في ذلك الجو العائلي الذي عكسته ابتسامة الأم.

جاوزنا الأيام الخلاف واستمر معتادنا في أيامنا الرتيبة، أتوجه إلى الورشة وأخي يصطحب بنت الجار التي انخطبت له في طريقه إلى مدرستها، أما والدتي فبصدفة حيازتها على التقاعد الجزئي أضحت تلازم البيت

وانشـغالاته...

ساعي البريد على عتبة الباب يسلمها برقيتين لتوقع..

.في الورشة يدور حديث بيني وبين(فضيل) والسيد (أجور)

السـيد (أجـور) يكلـم (فضيـل) وهـو في ترتيـب العـدة بالرفـوف: "سـتكون لـك هديـة مميـزة يـا (فضيـل) هيـا واصـل نشـاطك وعملـك الـدؤوب.."

فضيـل يـرد بحـماس: " فلتكـن زورق ملاحـة يخلصنـي من هـذا البلد المشـئوم" وتبـدو الجديـة مـن كلامه.

نظرت إليه والسيد (أجور) في دهشة مما يقوله توا.

مسـحت يـدي بالمنديـل واعترضـت طريقـه أمسـك ذراعـه: "مـن زرع هـذا في مخيلتـك يـا (فضيـل)؟ ومـن أغـراك بالسـخافات؟"

ثـم همسـت بأذنـه :"انـه مـن فعـل (حسـني) ومنظمتـه؟.. قـد سـبق لي أن رأيتكـما رفقـة."

-(حسـني) الـذي كان منطلـق مجازفتـي- المعتوهـة مـن أحـد قواربـه، غـير أن المهمـة والأوامـر تختلـف عـن الانتحـار والهـوى-

-انتفـض في غـير مبـالاة وهـو يراجـع شـغله:" ليسـت بسـخافات إنـه حلـم كل شـاب. بهـذه المدينة المشـئومة.."

-"تعقـل أرجـوك وراجـع نفسـك، بهـذا لـن تـضر نفسـك فقـط؛ بـل سـيمتد لأقاربـك وأهلـك وسـيجرهم لمـا لا يحمـد عقبـاه فـل..."

- صـاح بوجهـي مفلتـا ذراعـه :"إنـه حلمـي ويخصنـي... "ثـم تمتـم : "عـلى الأقـل هـي حيـاتي ولي حـق التـصرف بهـا كيفـما أشـاء... لا تتـصرف كالعـراب"

-"هـه.. وهـل أبـدو عرّابـا" .... غمـز لي السـيد (أجـور) حتـى انتهـي عـن

الـكلام، فربـت عـلى كتـف (فضيـل) وغـادرت المحادثـة " آنـت كالأخ بالنسـبة لي " .... انتهـت سـاعات عمـلي وكنـت آخـر مـن أغلـق بـاب الكـراج، أخـذت طريقـي بعدهـا إلى المنـزل. نزعـت معطفـي وعلقتـه ثـم رميـت مـاء عـلى وجهـي بمقابـل المـرآة، وتوجهـت صـوب المطبـخ لأقابـل أمـي، قبلـت رأسـها" هـا أنـا قـد عـدت فـماذا تـراك أعـددت للعشـاء أبنـك جائـع جـدا ؟" ..... وجدتهـا عـلى غـير عادتهـا وحـزن يخيـم عـلى وجههـا ..." أمـي مـا الـذي جـرى؟" التفتـت مسـحت عـلى خـدي براحتهـا «لا شيء بنـي" كانـت تصنعـت الابتسـامة وفنـدت شـيئا، ظننتـه شرودهـا الإعتيـادي فرحـت أداعبهـا، أحمـل بغطـاء القـدر و ارتشـفت مـن الحسـاء السـاخن، و تقمصـت تمثيلـة المتـذوق بالملعقـة....

"آه أمي ..لا يجوز هذا، فأنا لم أعلمك هكذا ...".

ردت علي: "ماذا؟".

-" يـا نـاس اشـهدوا أن سـيدة الطبـخ الشـهيرة بالمجـرة تعـد طبقـا مالحـا ولذعـا ههـه.... "

-"آخ هل يعقل؟ أنا لم أضف الملح بعد هههه..."

-"أوه أوه لا لا لا انتبهـي.. انتبهـي "وهـي ترفـع يديهـا مسـلمة بارتبـاك "مـاذا... ماذا؟".

-"المقلاة، قد احترقت ما هذا يا أمي ...."

-"أخـرج... أخـرج ...أيهـا المزعـج " راحـت تتدافعنـي، فتوجهـت إثرهـا إلى الحـمام لآخـذ دوشـا مريحـا و بعـد الخـروج مبـاشرة وقـع نـداء أخـي بجاهزيـة العشـاء، كنـت لا زلـت منشـغلا بتجفيـف شـعري فسرعـت مـن

ذلـك :" (ربيـع) .. لقـد حـضر العشـاء" فتفرغـت واشـتركت ترتيـب المائـدة معهـم ثـم جلسـنا عـلى الطعـام ، سـألني أخـي كـما يفعـل دومـا عـن يومـي: " كيـف كان يومـك يـا ربيـع ؟"

أجبـت :" كالعـادة وصـول الشـحنة اليـوم منتصـف نهـار و تأخرنـا في إنزالهـا و ترتيبهـا. وأنـت كيـف تجـري أمـورك ؟"

-"أنـت تعلـم أني نصبـت اليـوم خليفـة للمعلـم في الفـرع الـذي بنينـاه حديثـا، سـأشرف حاليـا عـلى تدريـب الدفعـة الجديـدة، أمـا المعلـم فسـيتولى تلقينهـم الـدروس الكتابيـة بالمسـاء ." ثـم أردف :" لكنـي.. يـا(ربيـع).. عرّجـت اليـوم مسـاء عـلى طريـق الميناء، فرأيـت الزينـة تطـال الشـوارع المؤديـة إليـه عـلى غـير العـادة، سـألت لأزيـل علامـات الاسـتغراب والإبهـام عنـي، فقيـل لي هـي ترتيبـات رسـمية للوفـد المبعـوث؛ أي المبعوثـين مـن القـصر الملـكي، سـيركبون مـن مينائنـا عـلى مـتن تلـك السـفينة العظيمـة التـي تـم بنائهـا وتركيبهـا وستشـق طريقهـا خـلال أيـام قليلـة لتبحـر اتجـاه مملكـة 'كانتيـا' مـن أجـل تحقيـق الصلـح المنتظـر". سـعال حزوقـة حـل بوالـدتي "أح ..أح" قاطعنـا. فحملـت إليهـا الإبريـق والـكأس بسرعـة وراح أخـي يربـت عـلى ظهرهـا "عـلى مهلـك، خـذي اشربي كأس مـاء"

في نفسي "إذا الجنرال كان محقا".

بعـد فراغهـا مـن كأس المـاء تحسسـت يدينـا براحتهـا وجمعتهـما " كنـت أظـن أنكـما سـتجتمعان بي دومـا حـول هـذه المائـدة وتبقـى وحدتكـما، لكـن أحسـب أنـه حـان الوقـت"

تكلمنا تزامنا " وقت ماذا..أمي ؟؟ ".

أزاحت يدينا بلطف عن كتفيها وتوجهت إلى غرفة الجلوس، فتبعناها لتفتح الدرج تحمل برقيتين ثم استندت بظهرها على طاولة الهاتف واحتضنت الظرفين قسطا، سالت على خدها دمعة ساخنة وحتى تمالكت نفسها، نادت على أخي لتقدم إليه الظرفين، فتح الأول فوجد رسالة أخذ بتمعنها سرا لم أعلم أنا ما بها، ثم فتح الثاني ليستخرج من خلاله وساما عسكريا به نجمة ثمانية ونصا خطابيا ساكنا.

اقتربت خطوتين لأحذوه ورسالته " هاي (شهاب) ماذا يوجد بالظرفين؟"

-"انه أمر التحاق عسكري رفقة وسام شرفي تكريمي لوالدنا، أصبح يقدم إلينا في ظرف بريدي كأن أبي لم يفن حياته لأجل هذا البلد ليلقى مثل هذا التكريم.." قدم إلي الوسام والرسالة.

ليضيف: "لقد تم اختياري للالتحاق بالصفوف العسكرية تأدية للواجب".

قرأتها ووجدت أن أمر التحاقه على بعد أسبوع من يومنا هذا، وسيوجه إلى جزيرة 'كورواديا' على متن السفينة العظيمة لإقالته، والتي ستتطرف بالميمنة الشرقية لسواحلنا حتى تبلغهم الجزيرة في طريقها، ثم تستأنف الرحلة بعد ذلك في اتجاه معاكس. هذا غير منطقي ومسار غريب أعتقد أنه يحمل غاية ما، فأصلا متى وجه المجندون على سفن الركاب المدنيين ؟؟.

('كورواديا' هي جزيرة صغيرة عمرتها بلادنا كخط دفاعي أولي، احترازا من مملكتي 'ديمور' و'أردمور' شبهي الجزيرتين؛ تقعان بالقرب مفصول بينهما بممر بحري تجاري، أنهكت عابريه القرصنة على مر الزمن، بالنسبة لحدود 'ديمور' الجنوبية فهي إلى جوارنا، وأما 'أردمور' فتقع بين

الممـر المـائي ومملكـة 'كانتيـا' التـي تحدهـا شـمالا.)
توجهـت صـوب غرفـة الطعـام، أيـن رأيـت أمـي تجمـع بقايـا الطعـام والأواني ودمعاتهـا ترسـم عـلى خديها ...
كلمتهـا: "أمـي لا تحـزني أرجـوك فقـد أصبحنا رجـال الآن" وتسـاءلت بحضرتها" لكـن لمـا لم يتـم اسـتدعائي أيضا؟"
فأجابني أخي من خلفي:
" في قانـون البلـدة لا يجنـد إلاّ واحـد مـن التوائـم، لكـن ليـس عليـك الحـزن يـا أمـي فقـد فعلـت بمـا فيـه الكفايـة سـيكون أخـي دومـا إلى جانبـك ومـا هـي إلاّ فـترة وتمـر كـما أني متمـرس ومتكسـب لمهـارات تسـاعدني عـلى اجتيـاز ذلـك، صـح أن تنقـلي إلى الجزيـرة سـيثقل عليكـم لكـن..."
-"لسـت حزينـة لأني أقـدم أحـد ابنيـا عـلى سـبيل والـده، إنمـا حـزني إنكـما سـتفترقان وقـد اعتدتكـما سـواء، كـما أني أُقلـق عـلى خطيبتـك الرقيقـة التـي ستشـتاق لـك حتـما وهـي التـي اعتادتـك بجوارهـا دومـا لا تفارقهـا."
-"سأتركها أمانة عندك يا أمي وسأمر بها لأحثها على ذلك."
-"أخي هل يحدث أن أختار الذهاب مكانك؟"
-"وهل سيغير القانون مجراه لرغباتك؟ وإن حدث فسأمنعك "
-"أتمنعني وأنت من له مدرسة وخطيبة ليعتني بهما ليس؟..."
-"قلت كلامي" تجلى ذلك من صرامة قوله دوما.
رجعـت أمـي إلى غرفتهـا أيـن زي أبي العسـكري لا يـزال منهدمـا فأوسـمته وراحـت تنـثر عنـه، أمّـا أخـي ذهـب في زيـارة الإقنـاع ومـا الأرجوحـة إلا ّوسـيلة لتبليـغ تلـك الرسـالة القاسـية، للتـي لانـت لـه عشـقا. السـاعة متأخـرة،

يرمي الحصيَّات على النافذة استدراجا لها بحديقة بيتهم المسيَّجة، وهو المأرجح انتهى حديثه لخطيبته الغير مرتبة بعناق حار: "لا أريد مغادرتك أرجوك" لم يكن ليقسو عليها أكثر من هذا، فكلمها برقة: " ألست أمينة أمي؟ وها أنت تبكين وتضعينني في موقف ضعف، حتما إن رأتك والدتي هكذا فستحزن، وقد وعدتها بأنها ستحظى بعنايتك في فترة غيابي."

سكنت بحضنه ثم قالت: " لم أظن أنك تجترأني على أن أصبر لغيابك وأنت وطني. كما أخشى عليك "

-"سأبعث الرسائل أعدك "

-" من يصطحبني بالدراجة كل صباح؟ من يعتني بمدرستك؟..."

ابتسم باصطناع " ستتعودين على الحياة العادية والمشقة، أمّا المدرسة فلها المعلم وزملائي، بعودتي سيكون لإحداهم أسعد زفاف في المدينة، سيملئ الآذان ويغمر العشاق غيرة "

قطبت حاجبها وأحنت ناظريها" كيف تستطيع قول هذا في مثل هكذا فليس ما أشغر له الآن"

-"أولا تصدقين؟ "

-"كلاّ.. لكني لا أريدك الآن سوى أن تقطع لي وعدا واحدا فقط"

-"بما أستطيع أن أعدك ؟؟"

-"بخصوص أسبوعك الأخير هذا فليكن لي وحدي وفقط، أي جاورني به وأقضيه إلى جانبي"

-"سيكون لكي ذلك"

.....تفنن السكون في بيتنا خلال أسبوعه. إنه اليوم السابع ساعة من

الزمـن عـلى مـرور الموكـب بشـوارع مدينتنـا، إعـدادات أخـي قـد جهـزت، اسـتوقفت عربـة عنـد البـاب لأخـي وخطيبتـه ووالـدتي تحملنـا إلى مينـاء المدينـة، بعـد دقائـق وصلنـا لكـن الركـن كان ببعـد شـارعين مـن الرئيـسي أو المـشرف عـلى الواجهـة البحريـة لإزدحـام الطريـق بالمـارة والسـيارات، البـوق الأول للسـفينة يـدوي.

-جـزء مـن الـكل فهـو بعظمـة السـفينة- قـد داهمنـا ونحـن في شـق طريقنـا إليهـا، كل الأرصفـة ازدحمـت عتـادا وحيوانـات حدائـق وغيرهـا كـما يزامـن ذلـك نـزول كتائـب الدفعـة المتخرجـة يقدمـون عـلى مـتن قـوارب متوسـطة الحجـم، أخـي يمسـك بمـزدوج يديـه أمـي وخطيبتـه وأنـا مـن خلفهـم أمـين الحقائـب وعـدة السـفر، هـا نحـن أمـام هيـكل السـفينة العملاقـة أخـيرا، و تلويـح السـابقين بالركـوب مـن أعلاهـا إلى ذويهـم... توقفنـا برهـة نسـتودع أخـي عـلى إلقـاء البـوق الثـاني كان أخـر مـن احتضـن ليهمـس بـإذني " اعتنـي بوالـدتي يـا (ربيـع)"، امتـزج ذلـك بدمـوع الأم والخطيبـة أيـن يلـوح أخـي بقبعتـه مهـرولا صعـودا إلى السـفينة وسرعـان مـا أطـل مـن الأعـلى يسـتأنف تلويحـه، البـوق الثالـث سـحبت المرسـاة وألقيـت الحبـال وازداد تمـوج الدافـع للسـفينة، هـا هـو أخـي قـد اسـتند كلتـا ذراعيـه عـلى الدرابزيـن.

..... رحلته.....

أنـا النمـوذج المختـار الآن عـلى مـتن السـفينة مـن عائلـة (رأفـت) لأداء الخدمـة العسـكرية عـلى خطـى والـدي، ألـوح لأمـي وخطيبتـي في رحلـة غـير مسـبوقة، شـدتي عهدتهـا والآن ارتخـت بدموعـي إرغامـا، أسـند ذراعـا بالدرابزيـن وأرتـدي قبعـة التلويـح اسـتقر فـكي إلى راحـة يـدي شـاخصا

والسفينة تستكمل عقدها، تلاشت المدينة بعد دقائق لم يبق منها إلاّ ذلك المعلم التاريخي، تلاشى بدوره لتطبع الخلفية الزرقاء بألوانها أين زرقة سماء تزاوج زرقة بحر.

عليّ أن أشق الزحام إلى طبقة العامة بدلالات أوراقي المدونة للغرفة التي سأحجزها حتى انتهاء الرحلة التي تقلني إلى وجهتي. زحام في الأروقة ينهك ونقص في الإستعلامات، يكاد يندر الطاقم البشري لهاته السفينة، لافتة بتوجيه الرواق (ج) ظهر أني في رواق الملحقين بالتجنيد، هذا طابور طويل لمجموعة من الشبان يعتدون بمقابل صاحب زى عسكري يحمل قائمة ورزم مفاتيح. وقفت في الطابور ورحت أراجع الأوراق مجددا " الغرفة 48 الرواق (ج) " الباب المقابل لي كان يحمل رقم 16، اتضح أن غرفتي في المقدمة التزمت بدوري في الصف الشخص الذي كان أمامي ذو بنية يحمل أوراقه بيمينه، أوقع أحداها وهو يسوي حقيبة ظهره رفعتها وأرجعته إياها ابتسم شاكرا، رددت بابتسامة مماثلة "العفو... "

وبعد أن عدا دوره تقدمت لأخذ دوري

صاحب الزي العسكري عرّف بنفسه وطالبني بذلك "أنا ضابطكم العسكري المشرف على رحلتكم إلى الجزيرة، قدم إليّ أوراقك الثبوتية " وبعد أن سلمته إياها قرأها جهرا أمامي "رأفت شهاب 19سنة الغرفة 48 أنت هو؟"

-"نعم"

-"ها هو مفتاحك تفضل، خلال الأربعة أيام القادمة سيكون لك وزملائك مجالكم من حريتكم، أي أنها لن تسري عليكم قوانين الجنود

بعـد، تصرفـوا عـلى أريحيتكـم كمدنيـين، فقـط ولتذكـيرك أن مـا يمنـع هـو افتعـال المشـاكل والإخـلال بالنظـام العـام، مفهـوم؟"

-"نعم"

-"تفضل ...التالي"

بعد الإنصراف وجدت من تقدمني بالطابور لا يزال بانتظاري،

صافحني مجددا " السلام عليكم أنا (شوقي)"

-رددت: " وعليكم السلام وأنا (شهاب)"

-"(شهاب) إذن أنت هو أصغر المجندين؟"

ترددت ثم سألته "وكيف علمت بذلك؟"

-"كنـت قـد اطلعـت عـلى قائمـة الأسـمية للمجنديـن مسـبقا ورأيتـك أنـت مـن ضمنهـم إن لم أخطـأ ب19 سـنة"

-"أنـت محـق، لم يمضنـي عـلى بلوغهـا إلاّ أيـام قليلـة، لكـن السـن لا يهـم بالنسـبة لي "

-"أشـكرك مـرة ثانيـة ولتذكـيرك نحـن بنفـس الـرواق كـما أعتقـد، غرفتـي رقـم44 إن لزمـك أي شيء فـلا تـتردد"

-" العفو، ستجدني في الغرفة رقم 48 "

-" سأدعك لترتاح الآن، أراك لاحقا "

-"حسنا، أراك لاحقا "

انصرفـت إثرهـا إلى غرفـة منفـردة محجـوزة باسـمي، أغلقـت البـاب مـن ورائي وجلسـت إلى السريـر أمسـح بـراسي أراجـع اللحظـات التـي مضـت، مـن ثـم تمـددت عـلى ارتـداد النوابـض ومحفظتـي إلى جانبـي، فتحتهـا اسـتخرجت

صـورة اشـتملتني بأمـي وخطيبتـي اؤنـس بهـا تلـك اللّحظـات الفارغـة التـي تزامننـي، وأحـم بهـا نفـسي...

صخـب الـركاب لم يسـكن بعـد، وإذا بلـغ ممراتنـا الفرعيـة ازداد تضخـما، أقصـد بذلـك الأروقـة الخاصـة بالمجنديـن، جاذبيـة الأزرق تشـدني إلى الفسـحة مـن ضيـق الغرفـة، وشرود الصـورة اسـتذكرني لحظـات شـقيتي صباحـا ودفـئ والـدتي بالمسـاء؛ غاصـت بي دوامـة الوهـم إلى نـوم الأرق. اسـتخلصتني يقظـة فزعـة مـن نومـي عـلى وقـع فـوضى وشـجار امتد مـن الـرواق الرئيسي، سـحبت البـاب خلفـي كـما أصحـاب الغـرف المجـاورة خرجـوا يسـتطلعون الحـدث. شـجار أحدثـه شـخصان؛ شـاب مشـدود إلى جـدار وصاحـب الشـارب مشـدود مـن معطفـه يتوعـد الأول، انتفـض مـن الأيـادي الممسـكة بـه وبـرم شـاربه ثـم قـال: "المـرة القادمـة سـتكون أسرع"... اسـتدار يغـادر فسـدت طريقـه مـن ضابطنـا يشـد إليـه بنظـرة حـادة وملامـح مزمجـره، سـاد صمـت لبرهـة، ثـم أسـمعه الأخـير بعـض الكلـمات القويـة " للسـفينة نظامهـا ولنـا نظامنـا ومـن يتعمـد الإخـلال بهـما حتـما سـيجدني أمامـه وبوجهـه" ثـم أمـال برأسـه مشـيرا إليـه ليغـادر.

أسـتدعي بعدهـا المشـدود فأرخـي، تنـاول قبعتـه مـن الأرض وحمـل حقيبتـه متجهـا إلي حضرتـه، ليتلقـى كذلـك نصيبـه مـن الملامـة عـلى مـرأى مـن أعيننـا وأنظارنـا نحـن المجنديـن، ورغـم الحجـة عـلى أنـه كان يتعـرض للسرقـة.

هـذا مـا ادعـى إلى ذلـك الطـارئ الغـير وارد مـن أجـل الإصطفـاف فتجتـاح موجـة الغضـب والعتـاب أجسـامنا المصطفـة وسرد وتذكـير للتعليـمات.

انتهـت تلـك الموجـة وأصدائهـا تترامـى في الأذهـان، فتلـم بعدهـا تلـك الغرفـة

مجددا بحواسي في وحشة غير مسبوقة، وكل ما كان ينتشل من حاويتها إلى الفسحة سوى ذلك الإطار للنافذة البيضاوية الشكل وما كان ليسع حجم الرأس البشرية، وهو ما ينطبق تماما مع تلك الخاصة بالزنزانة أو غرفة حفظ الجثث بالمشافي...

كانت الشمس قد أدركت غرفتي في الميلان الذي أجراه انعطاف السفينة، بذلك علم أن الغروب موشك، علها لحظة تلف وشاحها حول عنقها وتركل الحصيات في انتظار أن تستقل الدراجة رفقتي حتى تبلغ بيتها وتزامن الطريق بأحداث صفها من القسم النهائي، أين تشاركني أطروحاتها ومواقف تفوق إجابتها، متى ما أوصلتها أذكرها بانتظار الوالدة لأفلت من وداعها الطويل، فلطالما كنت أول من يدرك عتبة الباب فيتردد سؤال والدتي المعهود "لقد تأخر أخوك" فأصيبها بالإطمئنان عليه، واشغلها بالمديح لما تحدثه بأرجاء الحديقة أو نظم لأثاث المنزل حتى يتناهى إلى أسماعنا صوت عادم دراجته، أين يركن بالباحة الخلفية مفضلا الدخول من بابها.

صوت البوق يلاشي غفوتي وتدب الحركة مجددا في الأروقة، طرق على الباب وشوقي زميلي الجديد يدعوني لنركب موجة ذلك الحراك الذي طال رواقنا، زاحم بنا لإعتلاء الدرج صوب مقدم السفينة أين الحياة تدب بطابعها العام والتقليدي، فرقة فلكلورية مدرج مفرغ انتهى بوفد ملكي حافظ أختام ورئيس الحرس الملكي وهذه طبعا أميرة كلها تعابير أنوثة، كلتا اليدين غلفتا بقفاز أبيض أحدهما نابه الختم، وزيها الرسمي ينتهي بقبعة ازدانت بريش القطبي، ولاية العهد نالتها خلفا لأخيها

المتوفى والذي سبقها بها، هو الذي لم تفسر وفاته في ظروف غامضة ولم تخرج تفاصيلها من القصر، خلف من حياته ولدا وزوجة وقد ترعرع رفقة أخته الأميرة يتيمي الأم، أتتهم الأيام بعدها بزواج لم يرضوه لأبيهم الحاكم من إحدى الشريفات، هذا كل ما سمعته من أخي. الضابط التحق ليقدم التحية، والمقابل لأنظاري رجل يثني ركبته بساق مبتورة وعين فقئت، يبسط سلطته على طاولة شطرنج، يطرق قربها عداد قياس والمقابل له بديل في الأنسة، والجولة محسومة لصالحه يتمايل بأنبوب نرجيلته التي تثقل من مخلف رئتيه سحابا، لا يبالي بالمراسيم ويتبلا مجالسه أمام الملأ. هي الأميرة لا تزال تلوح وتستقطب الأطفال رغم تشدد حرسها إلاّ أنها ترفق وتترفق.

يد تنبهني تستند كتفي.

-"كيف تجد نفسك يا (شهاب)؟ يبدو أننا محظوظين إذ تشتملنا هذه الباخرة والوفد الملكي، غير أن ما يفرقنا هو ذلك البساط الأحمر ههه"

-" أنا بخير، ولكنه كما يبدو لي بأن البساط الذي أشرت إليه لا يضق بالأطفال أيضا فهو جانب من الرسميات فقط".

-حسنا، ما رأيك في أن نلتف حول الجمع؟ حتى نبلغ الجانب الأخر فهو يسع الواقفين والفرقة الموسيقية"

-"أنت ترى الزحام، فكيف نلتف حوله؟"

أشار بيده "اتبعني".... استأنفنا التدافع وسط الواقفين بغية الإقتراب من أصحاب اللحى الحمراء أي أعضاء الفرقة الموسيقية، لكن يبدو أنهم حرموا نسمة البحر لكثرة التزاحم حولهم، و فقئ العين هناك يشغل

الحيـز الكبـير بطاولتـه، حيـث تكـدس حبـال النجـدة بالمـوازاة مـع قبعتـه و المسـلك ناحيتـه يجانـب ميـسرة الفرقـة، (شـوقي) متفطـن إلى ذلـك بـل هـو سـابق إليـه يتقدمنـي وأنـا في أثـره و بينـما أحـشر، ترامـت إلى أذاني محادثات غريبـة مـن بعـض الراكبـين أحسـبها إحـدى لهجـات مـن تقطعـت بهـم السـبل في بلادنـا خـلال الأزمـة، لكـن مـن فالواجهـة قـد تكلمـوا لغتنـا أيضـا، إذا هـم مــن 'اردمــور' إن لم اخطــأ، أشــار (شــوقي) إلي أنــه ســيجتاز عتبــة الحبــال بالقفـز ولم يحسـن التـصرف لفعلتـه تلـك إذ لابـد أن يرتقـي لفائـف الحبـال المكدسـة بـكل اتـزان وهـذا مـالا يلائـم جسـده كـما يبـدو أنـه قـد أهمـل تمركـز فقـئ العـين وطاولتـه، وسـيخرب كل شيء فلـم يكـد يعتـلي اللفائـف حتـى وجـد نفسـه يعلـو رأس جليسـها الـذي يعطيـه بظهـره، وأنـا مـن خلفـه حجـب عنـي، علقـت أحـد أرجـل (شـوقي) فـراح يحـذرني السـقوط مشـيرا بذلـك، وبـاشر بكلتـى يديـه في تحريـر رجلـه يسـتند اللفائـف لكنهـا لم تكـن بالإتـزان الـذي يتأملـه، و لم يكـد ينتهـي مـن صراعـه حتـى خانتـه الأخـيرة ليتهالـك إلى رقعـة الشـطرنج متبوعـا بانهيـار اللفائـف، لم أجـدني بالحـال السـهلة حتـى أبلغـه وأسـيطر عليهـا لأني شـبه مقيـد، تمهلـت شـغور المسـند ثـم سـارعت بعدهـا إلى اجتيـاز عتبتـه وسـط اندهـاش مـن حولنـا، ترويـت قليـلا أنحنـي فأحمـل نعـلي (شـوقي) وأقفـز إليـه، أثـارت تلـك الحادثـة ردة فعـل جـادة مـن العجـوز لرقعـة شـطرنجه، فلـف عصـاه حـول عنـق شـوقي وهـو يختنقـه ثـم ثبتـه إلى ركبتـه السـليمة وسـط الواقفـين وأنـا لم أدركـه بعـد وهـول المنظـر يشـد أعصـابي سـكونا في انحنـاءة الواثـب، لم اقفـز بعـد نـزولا مـن المسـند وفقـئ العـين كان قـد افـترس زميـلي منحنيـا بتمتمـة إلى

أذنـه و(شـوقي) قـد بـدأ يغـرق في الغيبوبـة.

" أفلته .... أفلته.... إنه يموت ":صيحة فتاة صغيرة

تحـرك الحـرس وأمـن السـفينة يتدافعـون إلى حـدود حلقـة الملتفـين حولنـا كان ذلـك قـد حـررني مـن سـكوني لأرتمـي أمامـه "أفلتـه لم تكـن إلاّ حادثـة"

يجيبنـي بغضـب وهـو لم يرفـع بعـد نظـر عينـه السـليمة نحـوي" ابتعـد سـينال درس تطفلـه"

تقدمـت خطـوة، دسـت جانبـا مـن لفيفـه الحبـال المترامية أمـدّ يـدا ألـح بهـا حتـى سـحبت تداخـلات الحبـال مـن تحتـي، وارتـددت سـاقطا عـلى ظهـري، فعـل ذلـك بخطـاف عصـاه لتسـقط قبعتـي جـراء ذلـك، ثـم مـا كـدت أرفـع رأسي اتجاهـه أجـده يشـد العصـا نحـوي ويقـول في اندهـاش "(ربيـع).... (ربيـع).... الرصيـف...." تفـرغ لي شـخصان يسـنداني كي أقـوم، وأنـا أقلـب ندائـه لي باسـم (ربيـع) أخـي، في ذهنـي لسـت الخـوار في هكـذا موقـف لكـن تعليـمات المعلـم سـابقة. مـا قمـت أنفـي الوقعـة مـن ذهنـي لتغـير موقـف التألـف فاسـتقمت أسـوي معطفـي وأدس بيـدي إلى الجيـوب في وقفـة التحـدي، اكتملـت أنفـاسي وكلمـت بحـزم: " حسـنا، والآن أفلـت زميـلي وأوقـف هـذا.."

أرخـى الفـقء زميـلي ثـم دفعـه برجلـه لألتقطـه، عبسـت إليـه وهـو يتبسـم في كـبر، ثـم أسـندت (شـوقي) أشـق بـه الطريـق وسـط الحشـد والوجهـة غرفنـا، كنـت أفـسر أن مـا صنعنـاه بأنفسـنا مهزلـة عـلى مـرأى مـن الوفـد والحشـد والحـل التـواري بسرعـة، لكـن و كعادتـه جـدار الصـد؛ وهـذه المـرة في أوجهنـا إنـه الضابـط، رفعـت رأسي نحـوه ثـم التفـت فوجـدت خلفـي

حارسين لم يتعرضا لنا أشار إليهما أن يقتادانا في أثره، وكذلك العجوز كان ألزم حارسين وبعض من يرتب الفوضى المحدثة، أخذنا الضابط إلى غرفة العرض بالسطح أسفل من قمره القيادة وأخضعنا على ركبتينا نلف أيادينا إلى الخلف، وراح يجول حولنا حتى التحق محافظ الأمن الخاص بالسفينة.

تكلم الضابط: "ما كنت أنهاكما عنه هو الإخلال بنظام السفينة، اعتقدت لوهلة أن كلامي كان واضحا بما فيه الكفاية"

أراد (شوقي) التبرير لكن الضابط منعنا من التكلم وشدد على الحارسين أن يلازمننا هنا، بتلك اللّحظة دخل أحد الحرس وتوجه إلى المحافظ ليهمس في أذنه أمره الأخير بالإنصراف وهمس بدوره للضابط

"هناك من يستأذن الدخول أيها الضابط"

-" ومن يكون؟"

-" أحسبه الجنرال الذي تشاجرا معه"

كانت الرهبة تتملكنا من هول ما نسمع و(شوقي) ينذر بالقادم.

الضابط: "اخرسا ... " ثم أشار بيده "اسمح له بالدخول "

دخل الجنرال فقئ العين وهو يستند عصاه ويجر ساقه

"ماذا تفعل أيها الضابط أم أصبحوا يدرسونكم أن مزاح الأصدقاء يعد جريمة...؟"

يبتسم في وجهينا، رفعنا أنظارنا المرتبكة نحوه وجه كلماته نحوي" أم أنك لا تتذكرني يا (ربيع)؟"

ازداد الإستغراب منه مرة أخرى وهو يكرر نداءه لي باسم أخي لكن من

أيـن لـه أن يعـرف اسـم أخـي؟

"يبـدو أن ذاكـرة أخـذت قيلولتهـا -يقصـد الغيبوبـة- أقـوى مـن ذاكـرة شـباب وقتنـا هـذا"

ثـم اقـترب فـدنى يصافحنـي بيـده ورغـم عـدم الإرتيـاح صافحتـه، ليدعونـا بعدهـا أن نتبعـه، خرجنـا في أثـره مـن القاعـة والغـروب قـد حـل والباحـة ازدانـت بالأنـوار المختلفـة، مشـيرا إلى طاولتـه بغيـة المجالسـة، قاطـع (شـوقي) ذلـك رافضـا بنظـرات تضمـر الضغينـة، أمـا أنـا ففضـول ندائـه المتكـرر لي باسـم أخـي جعلنـي أقبـل مجالسـته إلى رقعـة شـطرنجه.

تبـدو الفـوضى التـي أحرزناهـا قـد تـم ترتيبهـا، لكـن دهشـة النـاس أعمـق بالأخـص انزوائنـا رفقـة إلى تلـك الطاولـة، تنـاول أنبـوب نرجيلتـه ومررهـا لي هـززت رأسي رافضـا.

الجنرال: "قد أصبحت أكثر صمتا يا (ربيع) ..."

لابـد مـن إثـارة المجادلـة، كنـت أول مـن يحمـل القطعـة أبـاشر اللعـب ثـم أطردتهـا السـؤال مبـاشرة: "كيـف تعـرف (ربيـع)؟"

بعـد إغلاقـه الكـراج باكـرا، شـق طريقـه طريـق المـروج حتـى انتهـى إلى شـجرة الطفولـة، الإطلالـة مـن قربهـا تـشرف بـك عـلى سـاحة المدرسـة، لم ينـزع خوذتـه بـل ركـن وارتكـز ثـم راح يتابـع عـن بعـد الأنشـطة المسـائية للطلبـة الجـدد تحـت إشراف المعلـم.

تفطـن المعلـم لوجـود الشـبح الأسـود وربمـا أدرك الشـخص الملتبـس فاسـتدار اتجاهـه وهـو يسـدل لحيتـه الطويلـة براحـة أناملـه، ترجـم ذلـك عـلى أنـه

تواصل يسوده الصمت لبرهة يتفهمه المعنيان...

أفرغت ما تبقى من الغروب متجها إلى البيت ووصولي هذه المرة كان أبكر من عادته عسى أن أمدح بذلك من والدتي.

فتحت دخولا وألقيت تحية ممتدة في الأرجاء لكن العتمة تجاهلتني بحجب الملامح فاتجهت صوب المطبخ وكل ما ضج بأرجاء البيت امتد من ذلك الإبريق المنسي على النار، ندائي لأمي لم يستجب صعدت الدرج بعد أن فرغت من الغرف السفلى إلى الأعلى، كانت غرفتي مفتوحة لا أثر للوالدة بها بينما غرفة أخي قد أوصدت، تحسست من بابها طرقت خفيفا وفتحت باسترسال، لفحات الحزن استوطنت الغرفة بطابع من الحب أعلنته والدتي التي تجالس ألبوم الصور تتحسس معالمه، لم نتمرن على ما يلي الفراق بقدر الأمهات، حتى ظلال الغرفة تستوحش، لكن من الأدرى بوالدتي الأغرق شوقا لابنها الغائب، دنوت على أسمى الرؤوس أقبله، خشية أن ما يداخل مني سيفسد الأنس، رفعت عيناها صوبي والخد ارتوى، لسان حالي يقول : "هولي عليك أماه.. أرجوك" ارتخت ملامحي لحالها وما عساي أفعل. إلى الغرفة يتسلل نسيم بارد من الأمسية هو ما تحسسته من راحة أمي سارع بي لغلق النافذة، فيداهمني جرس الباب أخيرا لفتة من أمي لمظهرها تمسح دموعها بارتباك وتكلمني: "بني اذهب وافتح الباب لبنت الجار، نسيت أنها عرجت صباحا وقد قمت بدعوتها على العشاء معنا"

-"حسنا أمي، والآن امسحي عنك هذه الدموع وغيبي ذلك الحزن حتى لا ترى منك الشقاوة في هذه الحالة، امّا الليلة فسأقوم أنا بإعداد العشاء،

يكفيك أن ترتاحي رفقة ضيفتك"

بعد أن فتحت الباب وجهت خطيبة أخي إلى غرفة الإستقبال حتى أدركتها أمي من ثم توجهت بدوري إلى المطبخ حتى لا يتأخر عشاءنا. جلسة الشاي اشتملت أمي وكنتها المستقبلية، أما أنا فاستدعاني مسرح الظلال خاصتي أجالس ذلك الكتاب قبل أن أغط في النوم...

أضرب على القداحة أفتح نارا وأغلق موردها في تكرار ارتبط بأثر أنغام الكمان، التي شد حاملها العشاق والأزواج في رقصة ثنائية اشتدت باشتداد أوتارها. وبعد أن شغرت الساحة من وليمة الوفد، كنت قد فرغت من حاجتي بالعجوز فقئ العين، لكنه أوفد خصما جديدا على طاولته ولا انتماء لي بين هذه الوفود فليس مستحسنا ألفتها، انتهت الخطوات بي في الرواق الساكن الذي لم يفرغ الضابط من مراجعته بعد كما يبدو، ودون مراجعة لموجته التي اجتاحتني مكررا أغلقت الغرفة عني ثم ارتميت والمفاتيح على جانب يبيت كل من على السفينة أماني في نومه بأمل إشراقة جديدة، أما عن اشراقتي فكنت خلفتها باليابس من هذا العالم.

بدأت الظلال تتجسد من محيا الشمس بأول أشعتها المنبسطة على الأزرق وما تجسم خلاله هيكل سفينتا أو مسببة الفزع..

أحداث مستجدة معلقة خلف أحلام النائمين أو بالأحرى علقت بمنظار مراقب يتطلب الاستعجال لا التروي..

تلاشى ضباب الصبيحة وطوف نجاة برز يلوح في الأفق -ربما ما يعرفون عندنا -بالحراقة-لاح بشباب من زهرة العمر، يبدو أنهم ضرار.

المراقب: "من برج المراقبة إلى الكابتن حول... هناك طوف يلوح في مقدم السفينة ..حول"

استباق الحدث واستقدام الكابتن إلى قمره القيادة، تناول المنظار والراديو "معك الكابتن لقد تلقينا تقريرك اطلعنا على إحداثيات القارب وكيف يبدوا هل هناك إشارة ... حول"

المراقب: "قارب ملاحة يحتشد ركابا، أكرر قارب ملاحة هناك إشارة تلويح ... حول"

في القمرة الكابتن: "حسنا أيها الربان ناولني عجلة القيادة، وأنت قم بتخفيض سرعتنا إلى 12 عقدة أطفأ المحركين الجانبيين، أما أنت قم بإعلام محافظ الأمن وفرقة التدخل"

تولى الكابتن عجلة القيادة ومنظاره بيمينه.

وصل محافظ الأمن أيضا إلى قمره القيادة " حضرة الكابتن قد بلغنا إشعارك "

الكابتن: " وما تقدمكم؟ "

- "قمت بتشكيل ثلاث فرق، في انتظار التعليمات"

- "لا نستطيع إيقاف السفينة في هذا العمق، كما أن تشغيلها ليس بالسهل بذلك سأقوم بتخفيض السرعة لإنزال إحدى فرقكم ضمن قوارب الإنقاذ فتقوم بمسايرتنا ثم تتحرك لتنتشل المغاثين متن قواربهم وبعدها تعود لمحاذاة السفينة، حتى يتم نقلهم."

-"علم، سأكلف الفرقة (ا) للتدخل والفرقة (ب) لإعداد القوارب وقاعة العلاج، أما الفرقة (ج) فستؤمن الساحة لكم وتبعد الركاب وفيهم من

يضمـن التواصـل معكـم".

سرعـان مـا تشـكل صفـي فرقـة التدخـل في مقـدم السـفينة مـسرح الكـمان سـابقا وحاشـد العشـاق، هـو الآن لأصحـاب البـزة الزرقـاء هـا هـو مسـؤولهم يدركهـم نـزولا مـن الـدرج "...انتبـاه..."

بعد أن سرد تعليمات الكابتن وإعلامهم بعدم إمكانية إيقاف السفينة

-"الفرقة (أ)"

بصوت عال " نعم سيدي..."

- "التدخل رفقتي زائد عضوين من الطاقم الطبي ... مفهوم"

-"علم..."

-"الفرقة (ب)"

-"نعم سيدي "

-"إعداد القوارب والقاعة العلاجية من مهمتكم "

-"علم..."

-" أمّا الفرقة (ج) فمسؤولية امن السفينة وحجر الركاب يخصكم "

-" علم ... "

-"انطلاق..."

-"حاضر سيدي..."

اسـتنفاذ العقـد واحـدة تلـوى الأخـرى وتوجيـه العجلـة كلـه في ريـادة الكابـتن.

تـم إنـزال قـوارب التدخـل وهـي متجهـة صـوب قـارب المسـتنجدين وعـلى رأسـها محافـظ الأمـن.

بعـد أن أحاطـت القـوارب بقـارب المسـتنجدين وتثبيتـه، ظهـر شـباب بـه

تقاربت أعمارهم، من نفس القامة، ونفس البنية، ثم تحرك ثنائي الإسعاف للفحص ونقل المغاثين. فضل المحافظ أن يمد يده ليسحبهم إلاّ أخرهم، تظاهر بإغفال اليد الممتدة نحوه، كان شعره ينسدل تحت القبعة الصوفية تخفي آثار حروق بالجانب الأيسر لوجهه، لم يكن ضررهم بالبالغ في نظر المسعفين، حتى في نظرة المحافظ إلى قاربهم بعد معاينته. انطلقت القوارب صوب السفينة التي حافظت على مسارها وسرعة منخفضة، تشق المد السطحي بمقدمها، قل أن يقال عنها صورة بالغة لبطة و فراخها.

انتشلت القوارب بعد صعود المغاثين والطاقم عبر السلالم المنسدلة، لف كل مغاث ببطانية قدمت له، واتخذت إثرها أولى إجراءات التحري تقريرا لقبطان السفينة بعد أن ادخلوا قاعة مهيأة على شاكلة عيادة، ليستأنف التحقيق معهم واحدا تلوى الأخر، التجاوب اللغوي كان متماثلا عرف أنهم من شبه جزيرة 'أردمور' متجهون إلى ساحل المنطقة الشمالية جرفتهم عاصفة قبل يومين بعد وقوع عطل خرّب محركهم مدعاة إلى التساؤل هل جرفتهم العاصفة إلى هذا الحد؟

المحافظ قبل ذلك قد تطرق لإطراف قاربهم لحين يسألهم :" رأيت أن المحرك مفصول من قاربكم وأثره ليس بالقديم كيف حدث هذا؟"

إجابة من تقدمهم: "نعم سيدي المحرك انفصل لعدم إحكام شده بهيكل القارب وهو المد قد سبب ذلك "

- "حقائبكم لم تحمل طعاما كافيا لرحلة تجاوز الأربعة أيام ووسائل لم نتطرق لتحليلها بعد ما هدف رحلتكم أساسا؟"

-"هـو كذلـك لـولا انحـراف المسـار لـكان وصولنـا بعدتنـا خـلال يومـين، أمـا غـرض وجهتنـا كان بغيـة حضـور المهرجـان السـنوي بعاصمـة 'كانتيـا' والـذي لنـا شـق فيـه بعتادنـا ذلـك"

سـيناريو ارتـاب إزاءه المحافـظ، ولم يمنعـه اسـتئناف عمليـة الإسـعاف وتقديـم الطعام.

بلغ الخبر الأميرة التي أبدت رغبتها بأن تعرج على المغاثين

هـا هـي تلـك العجـوز مـرة أخـرى تسـد الممـرات بحقيبتهـا -هههههـ- لم تفارقهـا منـذ صعودهـا وتكـثر الأسـئلة حـول الوجهـات.

بـل وتسـد طريـق الأمـيرة ومـن بصحبتهـا، أمّـا الأمـيرة كلهـا روح تلاطـف العجـوز بدورهـا كـما الطفـل الصغـير.

.....

هناك أحداث عالقة من الماضي قد حق لها أن تستأنف

.....

انعـدام الرؤيـا في الطرقـات هـو حـال المدينـة صباحـا ريـاح تطـوي أوراق الخريـف المتناثـرة هـي أشـبه بتلـك قبـل 4سـنوات، يـوم التكليـف شـاهد بـه أنـا والعشريـن طالبـا لقـرار المعلـم في رفـع مجلسـه، انتهـت لي بـدوار رهيـب ودهشـة تجرعتهـا دون معارضـة...

طريـق مقبـل أسـلكه مـن غـير وعـي حتـى أدركنـي تابـع شـعاعي منزويـا إلى ركـن بذلـك المقهـى ينـزع قفازيـه يتلـوا تحفيـزه ويربـت عـلى كتفـي ثـم يغـادرني هـو زميـلي وابـن جـاري (عـماد) لكنـي لم أهضـم مـا قـال.

عـدم وجـود الحافـز للمجازفـة وشـعوري باللاجاهزيـة جعلهـا محتومـة

الفشـل.

الطريـق المسـدود في الغابـة الأشـبه بالمتاهـة جعلنـي أرجـع خـالي الوفـاض، امكـث بغرفتـي معرضـا فاشـلا ومهزومـا فلـم تكـن لي الجـرأة الكافيـة لأختـار مسـارا، كنـت خائفـا، خائفـا بمعناهـا، أقضـم أصابعـي وأمسـح بيـدي الملامـح المرتبكـة علهـا تسـتدرك شـيئا لكـن لم يحـدث.

بالـكاد وصلـت إلى الورشـة متأخـرا فأبـواب الكـراج موصـدة هـذه المـرة والمفتـاح بيـدي، فتحـت بـاب المدخـل فقـط ليقابلنـي السـيد (أجـور) عـلى كرسـيه الهـزاز ومجلتـه لكنهـا مطويـة اليـوم و(فضيـل) يقبـع كجهاز استشـعار بجانبـه، يسـتدعيني بمجـرد أن رآني ويـصر عـلى الإسـتعجال، تقدمـت نحوهـم فسـلمت عليهـم، أشـار (فضيـل) عـليّ بالجلـوس للجديـد الـذي عـلى لسـان السـيد (أجـور)، يبـدو أن الأخبـار مـن الطابـع الـذي يختـلى بـه، أو علهـا زبـده الحديـث تقبـع عـلى لسـان السـيد (أجـور) ليبـاشر الأخـير كلامـه المحتـاط سردا.

-"مـررت اليـوم بالمقهـى لكنـي وجدتـه عـلى غـير عادتـه، تبـدت بـه وشوشـة في تكتـم وتمريـرا لكلـمات تحـت أسـقف الأيـدي، والشـوارب محجوبـة سـواء ممـن يسـتند ذراعـه ويـزف الإنبـاء أو حتـى الـذي يهـز رأسـه استدراسـا، اسـتدرجني الفضـول فـأشرت إلى صاحـب المقهـى وهـو ينظـر إليّ وكلي ملامـح متسـائل، فبـاشرني الحديـث بعـد أن قـدم إليّ فنجـان قهـوتي المعتـاد، صاحـب المقهـى تكلـم مـن دون رسـميات"

-"هـي أحـداث مسـتجدة تـم تناقلهـا مـن العاصمـة، البارحـة شـب حريـق مهـول بمـزارع ومسـتودعات حفـظ مـؤن وقيـل حظائـر حيوانـات، كلهـا ترجـع

إلى صهـر الملـك، وهـو أحـد النبـلاء ذوو الصفـة المرموقـة عـاد عليـه ذلـك بـأضرار وخيمـة لم يتحملهـا وعليـه ألقيـت تلـك الملحمـة بـين جـدران القـصر أيـن شـهدت أحداثـا أكـثر توتـرا عقـب تحـرك الأخـير رفقـة كتائبـه نحـو القصر وحـدوث تشـاهر بالأسـلحة، تعصـب ومطالبـة بتعويضـات "

-رددت طالبا التوضيح "كل هذا من أجل التعويضات؟"

-فأجابنـي:" المعلـوم أن الفجـوة الإقتصاديـة لبلادنـا ازدادت اتسـاعا خاصـة بعـد وفـاة ولي العهـد، كـما اشـتدت معارضـة النبـلاء لأهـم قـرارات الملـك مـن بينهـا تلـك التـي تخـص تحسـين العلاقـات مـع الممالـك المجـاورة، وهـي الخطـوة التـي استحسـنها العامـة بعـد أن سـكنت الحـرب عنهـم وأمنـوا أبنائهـم لمـا يقـارب العقديـن، ملخصـه أن صهـره ذلـك تحـرك مـن أجـل شيء أعظـم غايـة لأنـه مـن يلجـم أغلـب النبـلاء".

أدركنـا الـزوال لطـول المحادثـة عزمنـا عـلى إثرهـا السـيد (أجـور) عـلى وجبـة غـداء بمطعـم الحـي العتيـق، شـققنا طريقنـا انحـدارا عـبر الأزقـة أدركنـا الطريـق الرئيـسي وما كدنـا نعـبره حتـى غمـر بشـاحنات تتابـع عـلى مـلأه، شـاحنات عسـكرية ومدرعـات وعربـات شـلت السـير والوجهـة العاصمـة.

-عبـس السـيد أجـور ثـم أدلى بدفينـة: " يبـدو أن شـيئا جليـا عـلى وشـك الحـدوث"

اقتحمنـي التوتـر إزاء حالـة آخـي مـن ناحيـة وبلـوغ الأحـداث والـدتي التـي سـتطاوعها التأويـلات والقلـق بغيـاب ولدهـا.

ذلـك اليـوم المصحـوب بالعطلـة المسـائية رمـا بقـارب الوحـدة الـذي إرتطمتـه أمـواج مفاجئـة ببيتنـا، هـي خطيبـة أخـي ضاقـت ومرسـاها الوحيـد والـدة

خطيبها ليتبادلا شيئا.

****

شهاب يسرح في تفكيره بين مزدوجتيه " زهرة الهند باء تشتتها أنفاسك يا عشيقتي، فترفق الجاذبية بك وبثقلي لنرتقي أرواحا، ونلبث شيئا، من ثم ينافسها عطر الوالدة الممتد أطوارا خلالنا نحو ذلك الجانب، ويميت اشتياقي"

أول لحظات الغروب، وهي فترة يشتد الحراك في أرجاء السفينة وترتقي النسمات الباردة، أعطي المغاثين جانبا من الحرية للتنقل بسطح السفينة حتى لا يطالهم التضييق.

صاحب قبعة الصوف منسدل الشعر بدا بالهمس فزامنته أول مقبلات الطعام بالطبقة الراقية صوت البيانو الممتد إلى أرجاء الباحة عبر المكبرات، الجنرال لا يفارق فسحته لا ليلا ولا نهارا رغم تغير الأجواء والنسيم البارد، فيلبث بركنه تحت الضوء الفاتر لقاعة التمريض قليلة الحراس. تم تمرير نوع من الحبوب بين الأفراد المغاثين، لحن أنفاسهم خالف رومانسية البيانو فتم شطف أول حارسين عند المدخل وبدأ الانتشار بعد أن فتحت إحدى الخزانات الخفية بالسفينة و تذخروا بما فيها من مدخرات وأسلحة، تحرك منعدمو الإيقاع وظلالهم الخفية تتابعا هذا ما تعكسه الأضواء الخارجية، احترافية في الإغتيال وأولها الحراس الجانبيين، ثم بعدها تم إحكام الإنتشار لتتم المداهمة وإسقاط قمره القيادة، قاعة النبلاء، وباقي الأروقة تزامنا، دوت النيران والفزع وسكن

إيقاع البيانو فأخلفه صراخ وفزع، من ثم تم استدراج الأغلب إلى القاعة العلوية والبعض الأخر إلى مستودعات المئونة بالأسفل، حتى الجنرال الفقء العين جبر بأحدهم موجها السلاح صوب رأسه.

لم أفرغ بعد من تمارين المسائية، حملت المنشفة مواريا الغرفة مفتوحة، ومن هول الصدمة الذي استدرجني في فراغ استحلك تدريجيا، صراخ الأطفال والنسوة في طابور يجبر على المرور أمام ناظريا الشاخصتين "... هيا... هيا... تحرك" حتى اصطدم بي ذلك السلاح ولم أنتبه له لأني كلي مشدود، بأخر الطابور أرى زميلي (شوقي) يقاد رفقة ملحقي التجنيد بمسلح وزميله الثاني كان قد تفرغ ليتدافعني إرغاما بسلاحه، أمّا الآخرون فاستأنفوا تقدمهم وزميلي يلتفت نحوي فالإنعطاف، كسر المسلح شرودي بضربه المتكرر لي بمسورة رشاشه.

" الدرس الثاني في أساليب الإخضاع" أخضعته مفلتا سلاحه أرضا ملفوف العنق والذراع بمنشفتي، لم يدرك الطابور الإنعطاف بعد، حتى راجع الثاني خطاه يتهددني بسلاحه "هيا أفلته... هيا.. " تلقى تلك الضربة بقارورة الإطفاء على قفاه حتى سقط، إنه (شوقي) ولم يعدو عن تلك الخطوة اتجاهي حتى سكن وبرزت عيناه رافعا يديه في خضوعه السابق، هو سلاح يشد من خلفي.

-"أفلته" صوت من خلفي لم أكمل التفاتتي لتبين صاحبه، فيدفعني مجددا للتقدم "تبدوان سيئا الطباع" أخيرا من صوته تبينته هو ضابطنا.....

"ناوليني ذلك الصحن ابنتي..."

"أوب"..... (سقوط الصحن) ومحاولة التدارك من طرفها، لكنها تبدي الارتباك وأناملها في التقاط الشظايا المتناثرة، وتسري الرعشة إلى جسدها فتتزاحم الأيدي في الإلتقاط بين الوالدة وكنتها المستقبلية والإنفعال في الكلام...

"لا بأس عليك يا بنتي" تهدئة الوالدة لكنتها "سأهتم بذلك أجلسي بقربي فقط أنستك تكفيني... كيف هي أحوال دراستك أنت لم تخبريني؟"

تسرح الفتاة بعيدا وتعقد حاجبيها.. شيء يقبع على لسانها ولم يوشك بعد...

-"هل أنت بخير؟؟.... مال العبوس يتقمصك؟"

-" أهم .....هو فقط... لا لا شيء "وهي تنكر هزا برأسها....

انزلق من تمتمتها اسم (شهاب)... فدعا الفضول الوالدة إلى الإقتراب مجددا من كنتها.

وضعت يديها على ركبتي الفتاة وترجتها "أرجوك أخبريني لأرى... هل حدث شيء ما ليزعجك... أنت مريضة؟ إن كنت مريضة سآخذك إلى المستشفى.."

-"كلا لست مريضة" وهي تفرك أصابعها أقرب إلى قضمها والتوتر قد كساها محاصرة بأعين الوالدة التي أرهقها الحزن، لم تستطع التهرب أكثر فصرحت تفصيلا "هي فقط أحداث يا أمي يتداولها الأهالي أحسبها ثقيلة ومترامية الأبعاد تزيد من مخاوفي بخصوص... بخصوص شها..."

لطمت الوالدة خدها " اااااه (شهاب) .... ابني ...ماذا حدث له؟"

أمسكت الفتاة بيديها "لا. لا ..هو لم يحدث شيء هي مجرد توهمات

اصطنعهـا عقـلي..."

تكلمي حبيبيتي أرجوك لم أعد أحتمل...

-" هـي ثكنـات عسـكرية بمختلـف البـلاد تحـول جنودهـا إلى العاصمـة عقـب الـذي جـرى البارحـة في القـصر الملـكي، ولا أحسـب أنـك سـمعتي، الأهـم أنـه شـهد خلافـا حـادا بـين الملـك وصهـره، هـذا الأخـير تلقـى خسـائر مـن احـتراق أراضيـه وممتلكاتـه فحمـل جنـوده إلى القـصر مشـددا اللفـظ في حـضرة الملـك، مطالبـا بتعويضـات وجـرى مـا جـرى مـن تشـاهر بالأسـلحة بـين الطرفـين، وتحريـك الجنـود اليـوم لا ينـم إلاّ عـن واقعـة نخـشى أن تهـز البـلاد..."

-"ابني... ابني... لم يجند بعد ماذا تراه سيحدث له؟"

-"(شـهاب) يـا أمـي... ركـب رفقـة الوفـد المبعـوث... الأميرة ووفـد مـن القـصر والـذي يصيـب القـصر حتـما سـيصيب الأميرة وهـذا مـا نخشـاه، لا يخفـى عـلى أحـد مـوت ولي العهـد في تلـك الظـروف الغامضـة التـي فـسرت مـن بعـض العارفـين بالقـصر بـأن العـرش قـد أضحـى محـل أطـماع لأحـد النبـلاء، في وقـت سـابق ذكـر أنـه صهـر الملـك، خاصـة وأنـه تسـيد كتائـب ولي العهـد السـابق بموافقـة الملـك، وأغلـب أركان الجيـش تحـضي باحترامـه وولائـه.

- كـما أطبـق عـلى حاكمنـا مـن خـلال الـزواج العقيـم الـذي افترضـه عليـه مـن أختـه فلـم تنجـب لـه حتـى الآن وريثـا للعـرش وتوتـر علاقاتهـا بالأميرة وغـيره.. وغـيره... يـا اللـه "

-"إلهي، يا ربي أحفظ لي إبني وقرة عيني.."

-"مـا لم أسـتطع تفسـيره يـا أمـي، هـو أن الملكـة وزوجـة ولي العهـد الراحـل عـلى وفـاق تـام وهـو مـا سـهل انتقـال بعـض الصلاحيـات إلى أخيهـا "

-"بالطبع فولي العهد وصهر الملك قد حاربا جنبا إلى جنب في الكثير من الحروب التي خاضتها البلاد وكان مشهود على بسالة كليهما."

أطبق السكون بالجلسة على أثر الداخل من باب البيت. البيت الذي أصبح محكوما بمصائر غلب حزينها على منفرجها هي قسمة وقدر.

لقم تساغ على البارد من المشاعر، لبس تقاسم الأوجه من طاولة العشاء، وكأن الكلمات عصفت بها رياح الأمس ليكتفي (ربيع) منذ دخوله بالتحية والإبتسامة المصطنعة.

كسرت الوالدة من تكتمها الصمت، بسؤال لإبنها "(ربيع) بني.. مالك كلك صمت الليلة؟ هل تتضايق من شيء ما؟"

-"كلا إنه تعب عابر فقط "

-"هل هي الأحداث المتداولة تضايقك؟"

أنصدم لوهلة وتسعل الطعام الذي سد مجرى تنفسه، ثم أدرك أنها على علم بما يجري " شيء من ذلك، ماذا بلغك؟" بعد أن ارتقت أنظاره إلى ابنة الجار التي أحنت ناظريها في تخوف من نبرته... ثم غير من صوغ كلامه " لنأمل أنها أحداث من صنف الأحداث العابرة "

-"وماذا إن لم تكن ماذا سيجري لأخيك؟" ثم مالت إلى مسكنها الوحيد بكائها المعهود تسند رأسها يديها، وجدائلها المشيبة تنساب من عصابتها.

-"لا محل لأخي من هذا الوضع يا أمي. اطردي عنك وساوسك أرجوك"

لم يحتويني مرقدي وبطانيتي الليلة وتقلبي كان على أحر من الجمر، يستدرجني القلق إلى النافذة التي نفذت إلي بنور القمر، أصوات تداخلني الشك بل أصوات أقرب منها إلى الاستجداء...

شيء ما على الجانب الآخر من اليابس قد تفرغ من سباته لي
"(ربيع) تحرك فالموشك قد حل.... قد حل" أما صراخ البلدة فحمل من سكون الليل، والذي شابه مخاض الحامل، "ماذا تراه يجري يا (شهاب)؟"
دوي المدافع عدا على أحلام النائمين والفزع من إيقاع القذائف والرشاشات، يستأجر الجمود حواسي وهلة تنبهها والدتي بإدراكها، تحمل قنديلا وتغطي مشيباتها وابنة الجار لصيقتها تخشى مفارقتها.
-"ماذا يجري يا بني؟ وهي ترفع القنديل موازاة مع رأسي "
نواجزي حملت إجابة مترهلة الصوت... "لا أعلم يا أمي".. ثم تناولت عنها القنديل ممسكا يدها.
ملامح الشارع المشرف من نافذتي تغيرت، استنارت بيوته المتوازية وغمرت الطريق بقناديل الفزعين من دفئهم إلى الإستطلاع. سيل المدافع لم يسكن بعد وهو ليس بالبعيد.
التحقت مستبينا الأوضاع من الجيران أمّا الطابع على سماهم فواحد، فزع واستطلاع.
والصوت المدوي قدم من سهول الغربية لمدينتنا، تلبستنا أشباحه و استغرقتنا التمتمة مطولا لنلبث على تلك الحال. حتى برز النور من دراجة تسابق نفسها أو تسابق الزمن بضوئها المنفرد تشق الطريق بسرعة، (عماد) ابن الجار يركن مداهما بيته وبسرعة لم يفاتح حتى أباه الواقف بالخارج ثم تعالى صوت من بيته. صوت والدته وصراخ حنجرتها سرعان ما خرج مهرولا يحمل كيسا ملفوفا مدركا لدراجته يثبته خلفها... لحقته وهو يلبس خوذته لأفتك منه شيئا "عمااد ماذا يجري...؟"

التفت مُصرا على العجلة يستأنف طريقه "(ربيع) ! لقد أغاروا على المدرسة... والإنقلاب... الإنقلاب قد فتك بالعاصمة".

مضت الساعات على حجزنا جماعة مقيدي الأيدي أنا وصديقي في تلك القاعة التي كانت محل ترحاب بالمغاثين، وتعلونا قمره القيادة في سطوة القراصنة، أخيرا تبين أن أفراد عصابتهم كثر وليس من كانوا بالقارب فقط، لقد انتمى وانخرط إليهم ركاب في صيغة المدنيين، إنما أولئك دعم من فرقة خاصة مؤهلة على رأسهم صاحب الندبة، الذي أتى بالأميرة ووفدها إلى الحجز طلب تحويلهم ضابط ضيفتنا الذي أصبح رئيس العصابة إلى مكان أخر، وحتى الجنرال فقئ العين أيضا في الحجز لكنه أعلن تضايقه وأكثر من تذمره وسخطه لرئيس المرتزقة أو القراصنة سمهم كما شئت.

كانت الوشوشة والفزع والبكاء تغالب على السكون المعهود

أطلق الضابط عيارا ناريا "... سكوووووت .... سكووت ... سأكون شاهدا على التزامكم بالحجز إلى أن نصل مملكة 'أردمور' ."

اجتاحت موجة من الصراخ. وأحدهم يتهجم مشدود الذراعين" 'أردمور'؟؟؟..... إلى أين تأخذوننا؟" نفذ إليه من بيننا ثم صفعه حتى مال وعاد الرجل ليبصق إلى الضابط." تبا لكم أيها الخونة "

لم يحتمل الأخير ردة فعل الرجل ومن دون تردد سحب سلاحه وأرداه قتيلا. طلقة برأسه أدمته ترام صداها في الأذهان فلفت من حوله بالسكوت ". سكوووووت " خلف ذلك موجة من الفزع مردفا "سيكون مصير من يتجرأ مشابها " وخرج يتنمر يضرب الباب عنوة وقد خلف،

عـلى رأسـنا صاحـب الندبـة.

ثـم صعـد إلى قمـره القيـادة، هكـذا يبـدوا مـن نوافـذ الزجـاج المحيطـة بنـا عـلى الأقـل هـي تسـاعدنا لمعرفـة الوقـت.

أوتي بعدهـا بصاحـب الشـارب الطويـل يجـر وأيديـه مقيـدة إلى ظهـره مـن طـرف شـخصين، مـا إن دخـلا صرح أحدهـما "وجدنـاه في غرفـة الأمـيرة يـسرق مـن طاقـم الحـلي خاصتهـا"

ضربـه صاحـب الندبـة بلكمـة ثـم رمـاه بيننـا، اسـتطاع الإعتـدال في جلسـته نزيـف الشـفتين.

اسـتوقفني ذهنـي بمحطـات تكلفـت بهـا مسـؤولية مـا عـلى جرعـات، مثـلا الفـرع الجديـد لم يكـن متنـاولا سـهلا .... "عليـك بهـا يـا (شـهاب) عليـك بنجـدة المدنينـن حولـك، صغارهـم البـكاة، نسـاؤهم وعجائزهـم الفـزع... الأمـيرة والصلـح.

القـدر يصـب عـلى كاهلـك مسـؤولية هـؤلاء المدنـين فـلا تخذلهـم، بـادر بـزف الأنبـاء إلى المعلـم ... مـاذا تراهـم فاعلـون الآن؟".

ضرب كتفي (شوقي) ينبهني " (شهاب) ..إليك. أنظر"

إنـه النشـال صاحـب الشـارب، اسـتوي في وضعـه يفتـح فمـه يلتقـم مثبـت الشـعر لامـرأة بمقابلـه نالهـا النعـاس، أوقعـه إلى يديـه وبـاشر فـك قيـوده خلسـة في وهلـة راح ينفـس يديـه مـن أثـر الحديـد.

-"أشت .. (شوقي) لدي فكرة لكني أحتاجك وتركيزك لإنجاحها"

-"بماذا تفكر يا (شهاب)؟"

-"بتخليصنا من هذا الموقف لكن أولا علينا التخلص من هذه القيود"

-"حسنا.. فلنشر إلى النشال لتحريرنا"

-"هذا ما أفكر به، قبل ذلك اسمعني جيدا.. الجدران المحيطة بنا كلها زجاج وللخروج منها علينا تكسير منفذ نسلكه"

-"حتما.. سيطلقون علينا النار"

-"نعم هو كذلك، لكنه يتطلب شيئا من المجازفة والسرعة أترى ذلك القاطع التفاضلي... إذا بلغناه سنطفأ الأنوار كي نكسب وقتا نتحرك به وحقيبة العجوز التي عاندت التخلي عنها ستفيدنا، أما أغلالي وأغلالك فنجمعها لتكسير الزجاج بذلك سأقفز إلى خارج القاعة و أنت.. وأنت يا (شوقي) أستبقيك هنا فإني أحتاجك هنا يا (شوقي)"

-"كلا سأرافقك"

-"أرجوك يا (شوقي) أحتاجك هنا لإنجاح الخطة. ولتأهل لنا كما من الشباب ليتحركوا فور الإشارة، لكن أبدأ بالجنرال الفقء العين مسبقا أشر إليه صباحا بالإلحاح على الخروج إلى طاولته سألاقيه هناك، حتما تذمره سيجعلهم يخرجونه وعجزه لا يهددهم"

-"كنت لأريد مرافقتك لكني سأنفذ أوامرك ولنأمل نجاحها"

-"بخروجي سأعمد إلى زف الأنباء للمملكة عن طريق أحد معارفي المقربين إلى الملك"

-"وكيف تفعل؟"

-"اتركها لي... الآن أشر إلى النشال لمكالمتنا"

بعد أن فرغت من صاحب الشارب موافقا لكنه قد شارطني المرافقة والخروج معي، مردفا أنه قادر على أن يفتح كل ما يوصد في وجهه.

بما أن الليل مستغرق فذلك لصالحنا لكن علينا اصطلاح اللّحظة المناسبة. استهلك الليل نصفه.. صاحب الندبة يفتح الباب خروجا ويترك على رأسنا ثلاثة من الحراس، لبث قليلا ثم عاد وبيمينه كيسا، أمر مرافقيه أن يحملا الجثة المدمية التي لا تزال تتوسط الرهائن.. كانت قيودنا فكت واحتشاد المحتجزين وقوفا بتغلغل الجنديين وسطنا سهل وصول (شوقي) إلى القاطع التفاضلي وبلوغي حقيبة العجوز، كنت أمرت النشال المدعو (جاد) بأن يكسر نافذة بالمقدمة ونافذة تبعدها بمثليها، تريثنا حتى حملت الجثة من الجنديين وعلى رأسهم قائدهم أين فرغت القاعة من الحراس لم يبق إلاّ واحدا على أعتاب الباب، إنها الفرصة المواتية أطبق شوقي على القاطع ازداد الصخب والصراخ كسر (جاد) النافذة الأولى وقفز اتبعه طلق ناري ليكسر لي الثانية من الخارج رميت حقيبة العجوز عبر الأولى كتضليل اتبعها وابل من نيران الحارس أما أنا سلكت الثانية بسرعة، كاد بالخارج ضوء القمر أن يكشفنا للحراس لكننا انحدرنا مباشرة عبر الدرج إلى الطوابق السفلى خلسة، أما الحراس فسرعان ما طوقوا القاعة من الأعلى داخلها وخارجها رفقة قناديلهم والأوامر متبادلة " هيا تحركوا... أسرعوا.. القوا القبض على الفارين "

-"هاي أشت (جاد) هل تعرف الطريق إلى المستودعات؟"

-"نعم، لكن يبدو أن الحراس يشددون على أثرنا فتجنبهم صعب الآن" .

-"علينا التحرك بسرعة ..."

قلق أنا بشأن (شوقي) إن أدرك حتما فسيعاقب، كونه رفيقي ومساهم بتلك الفوضى، لكنه مبلغي الوحيد إلى الجنرال.

السوط التي تجلد على المدرسة جلادها أخطبوطا أطبق إحكاما بأسواطه في ليلة واحدة.. بالعاصمة إسقاط نظام واعتلاء عرش، بالجوار تدمير مدرسة وإفزاع شعب، وكذا تهويل ببحر لإفساد الصلح.

استنفذت الكتائب ذخائرها وسكن دوي الإنفجاريات بعد أن استغرق نصف الليل، علم الكل بما جرى حتى الوالدة لم استطع كتمانها مقالة عماد التي حركت في نفسي شيئا ورد فعل الوالدة وكنتها واحد عن ابنها وهي الشبهة في محلها بما أنه ركن من أركان المدرسة وقد أغترب في وقت ليس ببعيد.

العاصمة حل بعرشها ملك جديد وملكها الأسبق لم تدارك الأنباء مصيره. الغابة خلف الوادي كانت الملتجأ الوحيد للمعلم وتلامذته الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم، بدا أن الهدف كان المدرسة وليس المعلم قصد تهديم كيان ما، هذا لأنهم لم يتبعوا أثره إلاّ القليل من الجنود. غادرت الكتائب مطلع الفجر السهول الغربية تتجه إلى العاصمة.

ارتفعت الشمس بالقدر الكافي للتتسلل عبر الغيوم المشتتة تقودها الرياح الشمالية فانبسطت أشعتها النافذة على السهول لتوقض حنايا الأزهار المرهبة، مزارعو المنطقة غادروا إلى قلب المدينة كنت الشاهد على فراغ أراضيهم منهم، شيئا أبكر بي واستدرجني على الدراجة وقفت إلى الشجرة الثابتة أراقب المدرسة عن بعد، لكنها متهالكة الجدران ودخان شظاياها لم ينطفئ بعد، أحسسته يراغبني إسعافه ويستجدي الغيوم إخماد جمراته.

مداخـل اسـتحدثتها قذائـف المدافـع مـن كل جدرانهـا، الأسـقف الخشـبية اسـتهلكتها النـيران حطبـا، جبـت الأرجـاء حتـى انتهيـت إلى غرفـة المعلـم المخصصـة لإدراتـه، قمـة مدخـن المدفـأة خاصتـه تبـدو، هـذا بعـد أن اسـتهلك سـقفها أيضـا، خزاناتـه وأدرجـه لم تسـلم بدورهـا، انحنيـت لأحمـل مجلـدا التهمـت حوافـه النـيران انـثر الغبـار عنـه واعتدلـت ليدركنـي الزاجـل بصـوت أجنحـة متخبطـة عـبر المنفـذ الضيـق تريـث قليـلا ثـم اسـتقر إلى الحجـر المحفـور بالجـدار ينقـر مـن بـين قشـاته، حاصرتـه أحمـل أنبـاء علقـت إلى رجلـه، كانـت الرسـائل التـي يتبادلهـا المعلـم في شـكل رمـوز سريـة وقـد لقننـي إياهـا قبـل أن يرسـلني إلى تلـك المهمـة الفاشـلة.

فتحـت الرسـالة التـي راحـت تعكـر مزاجـي ثـم احتوتنـي بعـد أن اسـتنفذت سـطورها حتـى أضحـى خارجـي يعتـصر داخـلي، أضغطهـا بيـدي ويرتسـم إيقاعهـا بملامحـي مـن انضغـاط لفـكي وزفـير ونفـير مـن الغيـظ.

التفتـت إلى وجهـة تسـتدعي أجنحـة ملائكيـة في الحـين، بالبـاب اسـتقام كابـوسي الحـي قيدتـه نظـراتي الحانقـة وقيـدت أعينـه المنغرسـة ليكلمني: "(ربيع) أنت هنا .. أقصص ما تلقيته"

علّهـا أول مـرة تتـاح لي الفرصـة للتهجـم عـلى المعلـم وحتـما لـن أضيعهـا... بـادرت مبـاشرة فصـد اندفاعـي الأول نحـوه، حتـى اعتدلنـا إلى السـاحة ثـم ارتميـت في الثانيـة بأربـع هجـمات صـدت منـه قائمـا ثابتـا لم يتحـرك أنهكتنـي واسـتهلكت جـل طاقتـي.

صراخ اسـتكمل الضـاري بداخـلي انهـال بـكل مـا توقـد منـي عـلى المعلـم ولم أبلـغ اللحظـة أنفاسـه المتدافعـة مـن فيـه، سـحب خطواتـه خلفـا وتركنـي

أنهار أحمل ضحكة مفحمة ترخي رأسي خلفا وسدائل شعري إلى وجهي، قطرات المطر انتظرت التهابي لتخمده، تسقط على وجهي تزاحم الدموع الساخنة المنجرفة فتطأطأ رأسي أرضا ألكمها بقبضتي، غصة تخنق أوصالي. يتقدم المعلم صوبي فيسندني احتماء من الأمطار المنهمرة يحمل عني الرسالة ليتبناها بحنكته ورزانته.

ثم تلا: " بني إنها الساعة التي انتظرناها لجاهزيتك حتى تكمل مسارك العالق سابقا "

الحمية واجب أتت في شكل وساطة غير متوقعة بيني وبين المعلم لكن الهدف منها نجدة أخي، ذهني هكذا يحدثني عن تجاوز ما مضى وألا أفرط بنجدة أخي.

ثم أردف المعلم: " إن كان أخوك يستجديني فأنت ترى الوضع بعينيك، أما المسؤولية بحالها فهي على عاتقنا كلنا "

-"ما كان أرجعك الساعة أيها المعلم ؟"

أشار بيده " اتبعني لترى .."

توجهنا إلى خراب غرفته أزال بعض الركام من الأرضية ثم فتح طريقا إلى قبو غرفته بالأسفل، و لم يسبق لي أن رأيته ولا أظن أحدا يعلم بشأنه عداه، أشعل قنديله يضعه على طاولة اغبرت.

أخيرا تكلم: "هنا تواجدت مخطوطات سرية وشطر من تاريخنا ضحى لأجله الكثيرون من أسلافنا استدعاني الرجوع له"

ثم بسط خريطة " المملكة 'الكانتية' تحتضن البحر بمقابلنا في تقعر هلالي رفقة 'أردمور' إلى غاية الممر البحري الفاصل بين 'ديمور' و'أردمور'،

عاصمة 'كانتيا' إسقاط المسار اليها من منتصف التقعر، لذلك تبحر بعثاتنا من العمق، أمّا التقوس الغربي للهلال قد شكل مع نتوء أراضينا مضيق أو منفذ الحراقة إلى الأراضي 'الكانتية' كما تعرفه، والذي سيجت حدوده إبان الأزمة، تبعد تلك النقطة عن العاصمة بنصف التقوس الهلالي الذي يستغرق الراجل مسيرة شهر، لكنك ستعتمد مسارك الأسبق عبر المدينة الأثرية إلى الغابة التي أظلت مسارك بها"

هذه المرة التجربة مغايرة بعد الإطلاع على كامل زوايا القضية، تبين أن أخي أحد أقطابها والآن هو في حاجتي كما البلاد تحتاجني لقنني المعلم كامل التعليمات وزودني المئونة لمباشرة الإنطلاق بأسرع ما أمكنني.

حمل مخطوطاته واحتضنني " سألتحق رفقة الطلبة ومن تطوع من سأبقيهم إلى الملك نعبر الغابة حتى ندركه.. وبحمد اللّه قد بلغتنا الأخبار أنه استطاع النجاة رفقة بعض قادته وهم ينزحون إلى الجنوب بالمدينة الحمراء التي تتوسط الجبال".

انطلقت مباشرة إلى (فضيل) كي يبلغني (حسني) وفضلت تجنب العودة إلى البيت، لأني سأربك حواس أمي إن أعلمتها بمغادرتي البلاد، لم تطل مهمة بحثنا عن (حسني) وهذا بفضل (فضيل) الأدرى بأماكن تواجده المعتادة يركب إلى خلفي وينبهني" (ربيع)... أنظر أنه حسني هو يخرج من ذلك المقهى"

.....

جاد" إليك يا (شهاب) بالباب اثنان من المرتزقة... فماذا عسانا نفعل؟"

يتواجد اثنان من المرتزقة بباب مستودع الحيوانات في حراسته، قد

بلغناه لكن ما يزيد الأمر صعوبة هو أن هذان الحارسان يعترضان الزمن الوجيز بساعتنا، فلا مجال إلاّ للتخلص من رقابتهما بالإغماء، وذلك ما كان قبل أن يتفطن لنا زملائهم، مع تحركاتنا داهمتنا صرخات وأصوات امتدت من الجانب الموازي، أقصد مستودع المئونة به يتواجد شطر ثاني من ركاب السفينة وهم محتجزون هناك.

بالأعلى تفطن الضابط (لشوقي) الذي فكت قيوده، وأدرك من غيابي تلبسه لأني كنت مرافقه، جره بالقرب من الباب و انهال عليه ضربا وافتراسا أمام الملأ وأمام ناظري الجنرال الذي أنبسط على كرسيه لعجزه، أدميت ملامحه فكا للسانه حتى أغمي عليه لكنه لم يبد.

شققت طريقي مجددا إلى الأعلى محملا بشقين من الخطة الأولى، أولها أطلاق الزاجل على أمل تحرك المعلم، ثم باشرت الشطر الثاني من الخطة مقترحها (جاد) الذي خلفته رقيبا على المحتجزين بالأسفل بعد أن وضح أفكاره، أخذت بتطبيقها ومن شأنها أن تواري الأنظار عنا خاصة إذا علموا فعلتنا بالحارسين، اقترح (جاد) أن ندس كتلة من القش إلى الملاءات نجسمها على شاكلتنا ونسدلها على متن قارب من قوارب النجاة حتى إذا انقلب بالليل ظنوا هلاكنا واستأنفوا طريقهم فلا يخفى عليهم استحالة إطفاء المحركات في هذا العمق، تبنيت العملية حملت إلى ظهري الملاءات تكسوها ملابسنا الخارجية مخفية الملامح، عبرت بها أحد منافذ التهوية فأخرجني بمقربة القوارب، برودة الليل أعطتني أفضلية الساحة على الرغم من تجمد أصابعي، ربطت بجانبي القارب الأقرب إلى الدرابزين المجسمين حتى إذا سقط مقلوبا مثل دور الهالكين

المتشبثين به. أما القوارب التي تتوسط الساحة وفرت غطاءا جيدا لألا أنكشف، واجهت مشكلة بصعوبة تحريك القارب إلى الحافة لثقله ولا حتى قلبه. المرساة لم تبعدني ووزنها الثقيل سيفيدني، وتحريرها يدوي وفي المتناول حتى إذا ربطت الحبل بأولى حلقات سلسلتها البارزة ومجرد تحريرها سيوفر الوزن الكافي لقلبه، بقيت أمامي مشكلة الأداة الحادة لم أتوفر عليها لأقطع بها الحبل، إن لم أفعل ذلك سيستمر سحب القارب وسيتحطم حين يبلغ منفذ السلسة الضيق ويتشظى، اختصرت ذلك بعقد الحبل عقدا قابلة للفك وبالقارب اكتفيت بلفه حوله فقط احترازا. مررت الجانب القادم إلى السلسلة خارج أعمدة الدرابزين حتى يرمى إلى الخارج واكتفيت بشد الطرف المنزلق مع السلسلة، استندت بأرجلي على الهيكل البارز من القارب وباشرت العملية بسرعة منبها الحراس في أخر اللحظات والذين أحتاجهم شهودا فقط، كما آمل أن أتوارى بسرعة. استقررت إلى المنفذ بعد نجاح خطة (جاد) التي استقدمت الضابط معاينا لإحداثها, لم يأبه للإضرار بقدر سخريته واستغبائه لانتحارنا، لبثت منتظرا ظهور الجنرال. تملكني القلق بطول الإنتظار حول مصير (شوقي) فلن أستطيع بمفردي الإحاطة بكل ما يجوب السفينة العملاقة، آمل أن يلتحق الجنرال بي ليزودني بما هو على دراية به.

فعلتنا بحراس المستودع كشفت، وردة الفعل المتأخرة نفسها غير أن بلوغهم خبر التخلص منا أعاد السكينة إليهم ولملمة انتباههم بذلك تقرر تقليص عدد حراس السطح تدعيما للطوابق بالأسفل ومتاهة الأروقة المتداخلة، أخذت على إثرها الأمور منحاها البطيء بالنسبة لنا

بـدا أني عالـق بالأعـلى و(جـاد) لا أدري مـا هـو فاعـل لـو كشـف سـتذهب جهودنـا سـدا.

تدافعـت أنفـاس (شـوقي) بالداخـل مـن إغمائـه خلسـة مـن الحـراس المناوبـين، مـن حسـن حظـه أنـه كان عـلى مقربـة مـن كـرسي الجـنرال تنبـه هـذا الأخـير (لشـوقي) ويقظتـه الـذي رمـى إليـه إشـارة بملامـح وجهـه حتـى دنـا منـه. مـرر (شـوقي)عبارته" (شـهاب) يحتاجـك ...."

أراد أن يسـنده ولم يكمـل التفاتتـه ليجـد عـلى رأسـه أحـد الحـراس موجهـا إليـه سـلاحه، الحمـد للّـه أن (شـوقي) سـبق إليـه بالكلـمات.

رفـع الجـنرال رأسـه إلى الحـارس مزيحـا السـلاح عـن وجهـه "لقـد كلمـت الضابـط بشـأن أصدقـائي وصحبتـي إنـه بحاجـة إلى المـاء".

تطـرف الجـنرال ب(شـوقي) إلى الجـدار يمسـح عـن وجهـه الدمـاء يهمـس الأخـير بعبـارات الحسرة "لقـد تأخرنـا عـن (شـهاب) وأدركنـا المغيـب إنـه يريـد لقائـك عـلى طاولتـك عليـك أن تلـح عـلى الضابـط بالخـروج وأكـثر التذمـر".

الضابـط يصعـد الـدرج إلى قمـره القيـادة يسـتطلع ثـم يعـود نـزولا إلى القاعـة متجهـا إليهـما، أسـتند يقابلهـما يثنـي ركبتـه "يبـدو أن صديقيـك لقيـا حتفهـما بالبحـر هـذا مـن شـدة غبائهـما، لكنـي سـأمزقك المـرة القادمـة إن افتعلـت شـيئا مشـابها" ثـم قـام يخـرج.

التقـت أنظـار الجـنرال وشـوقي في تسـديد مفجـع اهتـز بعـد أن نـثر هـذا الأخـير الرمـاد عـلى أمـل لم يتشـاركه الجـنرال بعـد، لكنـه وفي الوجيـز جعلـه يلتـزم بـرأي التـوأم كأنـه أحـد أوامـر قادتـه وهـذا مايحسـب عـلى التدبـير

والإرتجال التي ألزم الجنود بتبنيها في هكذا مواقف وإن ندرت التفاصيل فاستوقفه في دهشة من شوقي يهز إليه برأسه -ثق بي - ... أريد محادثتك بخصوص شيء ما أيها الضابط ".

لا تمتحن صبري يا جنرال، فأنت بشتائمك ستلقى نفس المصير أنصحك أن تتوقف عن ذلك".

شدد الجنرال على طلبه "أريدك على انفراد"

تريث شيئا ثم أشار إلى جنديين بإبعاد (شوقي) الذي جر ورمي بين الرهائن.

-"أيها الضابط أنا لم يبقى من أيامي إلاّ القليل، ورحلتك إلى 'أردمور' طويلة شيئا ما فلا يجوز أن أحتجز هنا، أحتاج فقط الجلوس إلى طاولتي بالخارج ونارجيلتي أداعب نسيم البحر فهو علاجي الوحيد، كما أستلطفك على الركاب سيهلكون إن لم يطعموا ويسقوا فلا يجوز التخلص من المبادئ الإنسانية أيما كان هدفك".

.....

مزايدة (حسني) على الأجرة ومزايدتي على الإسراع انتهت على رغبته، استودعت (فضيل) الذي عاند إلاّ القدوم رفقتي بالكاد استطعت إقناعه وتوصيته بأن يهتم بوالدتي أثناء غيابي، والتي لم أجد جرأة لمواجهتها في هكذا موقف ولا أدري ما تصنع إزاء الخبر إن بلغها.

استهلكنا الساعات الباقيات حتى انتصاف الليل بالخليج الذي سنبحر من خلاله. وجدت أفراد منظمة (حسني) قد أعدوا قاربا.

-حسني: "أترى يا (ربيع) ذاك القارب هناك، إنه من أسرع القوارب

وأحدثهـا"

-" قلـت نفـس الحديـث في الرحلـة السـابقة، ثمـاني سـاعات بالنسـبة لـك مـدة قصيرة؟"

-"كلا مـا أخـبرك بـه الآن مغايـر قلـت أنـه الأحـدث وسـترى، إذ سيسـتغرق بنـا وقتـا اقـل مـن المـرة السـابقة بكثـير وربمـا نصـف المـدة" ثـم ضرب عـلى كتفـي وانحـدر يضحك ".ويهـو.. ووو..."

-"لنأمل ذلك "

بلغنا الشاطئ المقابل وتحقق ما قال (حسني) بل هو ما كنت آمله.

-"لا تنتظرني هذه المرة يا (حسني) فلن تكون طريق عودتي من هنا".

تفهـم منـي واسـتودعني بعـد أن زودني ببعـض الوقـود "رافقتـك السـلامة يـا (ربيـع)"

تدافعـت دراجتـي حتـى أعـلى الطريـق ثـم انطلقـت، يلزمنـي نصـف اليـوم كي أبلـغ مدينـة الآثـار، وبعدهـا سـلوك المسـار داخـل الغابـة المتاهـة أيـن أهملـت المسـارات سـابقا وأهملـت جـزءا منـي، خلفـت ذلـك الحـزن الـذي سيشـق عـلى أمـي والتـي اتخذتنـي بلسـم جراحهـا الوحيـد بعـد أن غادرنـا أخـي.

- ذهنـت بعدهـا إلى شـجرة مفرنـا مـن مدرسـة المعلـم، إمـا عقـاب حـلّ بنـا، أو عقـاب موشـك، يـدق أخـي بالحجـرة عـلى النقـاش الـذي يصيـب لحـاف الشـجرة يخلـد أحـرف اسـمينا والعهـد الـذي قطعنـاه عـلى أن نقـف جنبـا إلى جنـب.

.....

أخـي الـذي تنـاوب ليلتـه و(جـاد) في حاويـة القـش، وقـد بـات في علمهـم أن الأمـيرة محتجـزة بالأسـفل رفقـة وفدهـا وحشـد أخـر مـن الـركاب. في طلائـع الصبيحـة أشرف الجـنرال عـلى طاولتـه وافـتراس الفرصـة السـانحة وتكليـم (شـهاب) بالقـرب مـن لفائـف الحبـال راح الجـنرال يسـحب الجـو بدخـان نارجيلتـه متظاهـرا بالغنـاء.

-"صباح الخير أيها الجنرال" أتاه الصوت خلسة "لا تلفت... "

-"صباح الخير كيف حالك بني قد خلفت موجة من الفزع".

-"لا إطالـة في الحديـث فعلنـا ذلـك لنبعـد الأنظـار عنـا فقـط أخـبرني كيـف حـال شـوقي؟".

-"هو بخير الآن ".

-"أيهـا الجـنرال لدينـا خطـة لنعيـد الاسـتيلاء عـلى السـفينة مجـددا وأحتاجـك لمسـاعدتي، أحتـاج رجـالا كـثر وأريـدك أن تسـتدرج الضابـط إلى طاولتـك حتـى أتمكـن منـه كخطـوة أولى "

-"اسـمعني بنـي، الرجـال الذيـن تبحـث عنهـم لـن يتوفـروا بيننـا فـكل مـن بالداخـل فـزع رغـم أن (شـوقي) سـيؤدي مـا عليـه لكـن لا تعتمـد عـلى ذلـك اعتـمادا كليـا، هنالـك فرقـة التدخـل وأمـن السـفينة لا أعلـم أيـن احتجـزوا لـو استطعت تحريرهـم فهـم مؤهلـون لذلـك وسـيتوفر لـك الرجـال الذيـن تريدهـم"

داهمـت دوريـة تحـاوري والجـنرال تفطـن لهـا الأخـير ليأمـرني بالقفـز إلى جنـب، ثـم دحـرج لفائـف الحبـال والشـباك فوقـي لتغطيتـي حتـى أوجعتنـي حبسـت أنفـاسي دفينهـا.

انتبه الحراس لذلك لكنه أوهمهم أنها سقطت من تلقاء نفسها ثم أنهى كلامه لي "فلتنتبهوا للأميرة أولا ولتكن خطواتكم مدروسة"

-"حسنا سنرى الليلة ما يمكننا فعله يا جنرال لا تنسى إبلاغ تحياتي (لشوقي)"

في تلك الآونة بدأ (شوقي) يزرع الخطة المتبناة للنجاة وسط الرهائن ويستقطب أشداءهم.

حللت وانتصاف الشمس بالمنعطف الجبلي الذي يشرف على المدينة الأثرية المهجورة؛ طريقي سابقا؛ و هو يحمل أسوء كوابيسي، تجاوزت ذلك حتى مشارف الغابة، الثقب الأسود الذي ينفذ بي إلى استيحاش نمى داخل عنق الغابة، حتى هواءها تعكر والتنفس خلالها متعب.

الطريق الضيق مثل بي إلى أعماقها التمثال الحاجز الذي تفرعت خلاله المسارات الضيقة وقد طمست ملامحه من العوالق النباتية. لا لافتة ولا أثر يرجح الوجهة، هذا ما تحسسته يداي من الأرض، أضحيت مجددا وجها يوسم بكامل ملامح التوتر، نافذة السماء البعيدة وتسلقي على إحدى الأشجار هو الحل المتبقي حتى أتبين طريقا.

بدأت بشق طريقي إلى الأعلى أين تكاثفت الأغصان وتداخلت، أمطرت عديدها لأنفذ من خلالها، أول نفحات النسيم تطربني حتى أصنع موطأ يحمل قدمي من ثم استطالتي، اخترت أحد الجذوع القديمة الصلبة الذي أصبح ابنا لأمه فلا تفرط به ولا يفرط بي، ثم اندفعت برأسي كزهرة استقوت بأشعة الشمس على جدرانها، رأسي وذراعاي على منبسط القمم الخضراء، والشمس مالت ميلا شديدا بإسقاط مسارها، اتضح أن

الإنفتاح الذي يقابلني راجع إلى أن اتجاه المدينة الأثرية، وجبالها إلى ظهري صوت رفرفة قادم من خلفي التفت نصفي يكمل جولته فشدني ذهول مكهرب للشبح الداني مني على بعد رمحين من مقامي، ثم زوا بطائرته الشراعية يرتفع مجددا....

"ويييييهووو.... ويييييهو" الثاني من خلفه يحمسان مغامرتهما، تفطنا لي انفتحت أساريري، لوهلة شعرت أني أسابقهم أنهما مغامران خلفيتهما الجبل الذي ارتميا منه، لوحت بيدي أنادي لهما أشار الثاني إلى أمامه على مكان نزولهما، فدنوهما من هذا الإرتفاع يفسر وجود منبسط سينزلان به، واختفائهما عن مستوي الأشجار بعدها ولم يظهرا مجددا. أكد أنهما ليس ببعيدين وأنهما قد بلغا المنبسط، من شدة الحماس وحتمية الزمن وجدت نفسي على مشارف الأرض، قفزت ما تبقى من مسافة ثم ارتميت إلى دراجتي بأقصى سرعة إسقاطا على مسارهم، كأني أضرب بجناحين كتلا من الضباب ألاشيها.

أمكن القول أن الحظ كان حليفي في عديد المحطات، أما في مسألة النجاة والحياة أو السقوط والهلاك من جرف أتجه صوبه من غير دراية، فلا استبصار لي ولا كرامات إنما أنا بشر بسيط يلاحق مغامرين، تراوغه الأفكار وهو يراوغ جذوع الأشجار، اخترقه صوت يعبر سيالة عصبية من داخله إلى دماغه، لا مصدر خارجي لذلك.. الصوت أقرب إلى الصراخ..

تبينت كلماته القوية.. "احذر أمامك ...احذر.." أهز برأسي نفيا لأضغاثه، وأضغط على المقود استمرارا نحو الأمام، يعترضني جذع عرضيا فقفزت عنه بسرعة لينفتح الفراغ من أمامي وتبرز عيناي بشدة...

الصوت مجددا "أفلت المقود... أفلته يا (ربيع)"

أرخيت المقود في صدمة أبعد الأرض بعدا شديدا والدراجة تسحبني الهاوية، استحالت النجاة وبلغت مستوي الهاوية من تحتي حافتها أرفع بصرا مغمضا إلى السماء..."إنها النهاية"...

يزامن ذلك انهيار الأم بعتبة الباب، هي التي انتظرت كثيرا لتبلغها الأنباء عن ولديها، تكثر الإتصال بورشة السيد (أجور) لكنها لم تبلغ شيئا عن (ربيع) الذي خرج مبكرا ولم يعد، وقد مضى على ذلك يومان والسبب تردد (فضيل) متخوفا من إبلاغ وصية (ربيع) حتى تلقى مراجعه السيد (أجور) له وترجمته لحرقة الأم التي تترقب أنباء ابنها وتكثر من الإتصال، أخيرا فعل وهو يربت على كتف الأم ويذرف موقفا علّه أدرك حديث (ربيع) يوما ما بشأن أفكاره حول الهجرة.

تلقى (شهاب) صعوبة في بلوغ صديقه (جاد) إلى الأسفل حمدا للّه أن منافذ التهوية كثيرة...

-"لدي ما أقوله لك يا (جاد).. أخبرني الجنرال بالأعلى أن فرقة التدخل وأمن السفينة سجن بمكان ما هنا، وهم سندنا الوحيد للإنتشار بسرعة، لكن يا (جاد) هنالك تساؤل يقلقني ولم يتح لي الوقت لأطرحه على الجنرال فهل تراك ستجيبني عنه؟ لم أفسر بعد سبب الإستيلاء على السفينة من طرف هؤلاء الجنود ومن التحق بهم"

-"كل ما أعلمه يا (شهاب) أن شبه الجزيرة 'أردمور' مملكة صغيرة تأوي جماعات كبيرة من المرتزقة، و سبب استفحالهم هو تهاون 'كانتيا' في الإغارة عليهم حتى الآن، و يقال أنهم يحفرون إلى حدودها مناجم عميقة

يسعون لاستخراج شيئا ما، يشكل مصدر تهديد للبشرية وللمملكتين المتجاورتين، بذلك أصبحت الحدود بينهما محظورة حظرا شديدا، يضاف إلى قرصنتهم المستفحلة بالبحر، هذا كل ما أعلمه صديقي وحتى لا تنسيني المفاجأة فهنالك شيء يروق لك يا (شهاب) لقد كشفت أحد مخازن الأسلحة خاصتهم...."

التفت (جاد) وسحب من كومة القش رشاشين وبعض الفاكهة...

-"هل تجيد استعمالها؟"

-" نعم، وأنت؟ "

-" بلى، ولنأمل ألا يضطرنا الوضع إليها لكننا سنحترز بها فقط".

ابتسم في غير مبالاة للوضع وهو يقضم التفاح..

-" هه.. إنها هدايا جميلة، أعلمني متى سنتحرك"

-"سنجد مكانهم أولا فخطوتنا الأولى هي إيقاع الضابط بأيدينا".

.....

حول نار موقدة في منبسط ما، اثنان تجاذبا أطراف الحديث أمام ثالث يهتم بقدر العشاء.

-"هل انتبهت من خلفي إلى الذي برز من أعلى قمم الأشجار يلوح ؟"

-"بلا، فقد أشرت إليه بمكان نزولنا، ماذا تراه جرى له؟".

-"حتى وإن عرف مكانكما، فسيؤخره نزول الجرف، هذا إن تبعكما أصلا".

-"وما ظنكما بأحد قد تسلق أعلى الأشجار من تشكيلة لأوحش غابات الأرض"

-"إما أن يكون تائها أو مجنونا مثلنا هههههه".

لست فطنا بقاع ولا أثر لسقوطي بمستو أدنى، بل حافة الهاوية تلك تقبع أمامي الآن، ولا تبعد عن جسدي الممدد إلاّ بخطوات، لا أضرار تذكر، مجرد تأوه اعتدالي مصحوب بألم الرأس وسعال يسوي مجرى أنفاسي من أثار الموجة الارتدادية التي أصابت القفص الصدري، أمرر بأصابعي عليها وعلى عنقي وأميل برأسي يمينا شمالا، أثار التراب على ظهري توحي أني لم أتقلب كثيرا، سحبت جسدي إلى الجذع الساقط الذي اعترضني سابقا أستنده، كل المراجعات التي يحاول ذهني اجترارها تفسيرا لما حل بي يكسوها الغموض، أمّا الأهم أني تشبثت بالحياة بفضل معجزة ما.

هذا لم يمنعني من الغوص في مراسم الغابة الليلية الجديدة، خاصة وأنا على الطرف منها، سيمفونية الليل ونجوم تستنير تتخلل قمم الأشجار تتعلق بفروعها، أحنت برأسي إلى أعماق الغابة، نقيق الضفادع يترامى بين أصدائها وغياب لصراصير الصيف أظنه جو الخريف والشتاء أوشك عليها، تلك اللوحة تنافس نجوم السماء في الليلة المقمرة، هذه الأخيرة التقطتها من مكاني بزاوية نظر انفتحت على إطار بين صلبي شجرتين شاهقتين في صحوة ليل كله نور. دنوت من الحافة أغوص بأنظاري إلى الضوء الخافت من مصباح دراجتي المحطمة الذي لا يزال منيرا غلب عليه نور القمر فلم يبد إشارة، أما سدائل جذور الأشجار فتهيئ على امتداد الجرف نزولا معتدلا حتى الأسفل، فيمكنني السهل من التحرك خلاله، حيث تترامى به تلك الكويكبات من الأشجار المتفرقة تتوزع توزعا عشوائيا، أثار تخييم تتبادر من إحداها نار ودخان حتما هم المغامرون الذين اتبع أثرهم، حملت عتاد حقيبتي والحبال ودسست

بحطام دراجتي إلى الشجيرات ثم انطلقت صوب مصدر النار والدخان على ضوء الطبيعة سابق الذكر، حاذرت أن استهدف عدوا لذا انكشفت في مشيتي بالسهل ولم أتوار.

باقترابي ناديت على النار لألقى الترحاب من الشباب وأدرك الوليمة .جرى ما جرى من الحديث فتبينت طيبة الثلاثة وهزلية أحدهم عبر المسائلات و التجاوب وانشغالهم لما حل بي قبيلة، لم أشأ كشف المهمة أو ما جرى ولا حتى ما هو موشك الحدوث، لكني لم أتردد طلب المعونة والتعجل خاصة وأن وسيلتي البطيئة إلى التحرك تحطمت، كنت شددت فقط ببيان المسارات، لكن لحين علموا وجهتي شاركوني وجهتهم العاصمة التي نشد إليها نفس الرحال، أما بالنسبة لهم فمن أجل المهرجان والإحتفاليات برأس السنة، كما يتعمدون تفريغ أوقاتهم في شتى أشكال المغامرة حتى الموعد المرجو، وبالنسبة لوسيلة تنقلهم لم تبدوا لي سوى الطائرات الشراعية التي رأيت سابقا، ظننتهم راجلين، ودعوتهم لي للمرافقة تعني التأخر، خاصة بعد إعلامي بطبيعة المسالك الجبلية الوعرة التي تنتظرني.

جهز ثالثهم العشاء ودعانا للتفرغ له، كان القلق باد على ملامحي فهو ما استعصى عليا إخفاؤه، ابتسم الهزلي المدعو ب (سامر) ثم أردف :"لا تقلق تناول وجبتك وأرح نفسك سنوفر كامل قدراتنا ومستطاعنا لمساعدتك ".

-"أنا في عجلة من أمري، وبلوغ العاصمة بأسرع ما أمكن سيكون لصالحي ".

غمز إلى صاحبيه ثم تكلم لي :"أنهي عشاءك فهنالك تحليه ستروقك".
أنهينا العشاء، وملامح وجهي التي كانت تتدارس بينهم قد هدأت، (سامر) الذي كان أقرب وأخف روحا ارتكز إلى جانبي بعد أن انصرف الآخران، أحدهم يهذب المراقد أما الثاني فهذب أرواحنا بمعزوفة الكلارينات خاصته، غاصت بي إلى جمالية الشفق القطبي أحرك أوهامه بعصا سحري، أحتضن دفئا من حقيبتي، دفئ بسبات مخلد يشاطر الذهن مشاغله شيئا، كلما أتقدم في هذه الأرض أسمعه من داخلي؛ سيستقدم الخيال على رقعة ترقص بروحك وروح طيبة سواء.
(سامر) ينتشلني من قيود الموسيقى "لا أستطيع أن اقتحم أسرارك ومشاغلك ولا حتى همومك يا (ربيع) لكن إن أمكنك أشر فقط عما بداخلك".
-ذهني يحدثني "إن هذه أول خطواتك بعد أن اجتزت مخاوفك، أما عن الأنباء التي تكتمها فستبلغ عاجلا أم آجلا هذه الأرض، فلا ضرر أن تأخذ قسمتك مما يقدمه القدر إليك وتستعين به".
ثم تكلمت علنا:"(سامر) أشكر حسن الاستضافة الإرشاد من أعماقي، أما بالنسبة لي فهناك طريق طويل بانتظاري" تناولت عدتي وقمت معتدلا " كلما تأخرت عجلت بهلاك إخوتي، فالقضية أكثر مما تتصور".
بعد التفاتي ألوح إلى (وجيه) و(شهير) توديعا لهما، داس اثري (سامر) ممسكا بكتفي "اتبعني يا (ربيع)" ...مشيرا بإصبعه على سكوتي .."أشت".
تبعته إلى ركن من الشجيرات حيث راح ينقب مزيلا أغصانا طويلة بفروع مورقة يخبأ خلالها شيئا، بدأت ملامحه تظهر شيئا فشيئا سلة كبيرة مربعة الشكل، ثم لوح بإصبعيه على تقدمي وهو يبتسم .

تقدمت متداركا الحيرة لأتكهرب من المفاجأة بل حتى تشابك أصابعي إلى خلف رأسي لم أشعر به من الدهشة، أقلب أنظاري بين (سامر) وموقفه المجسد أمامي ، حتى أساريري اشتبهت بالدموع سارعت حجبها بيدي أرتجف كليا متهالكا إلى الأرض على ركبتي .

هو ما كشف الشبهة التي راودت (سامر) بأهمية قضيتي وأنا الذي لا تصدق عيناي ما تتحسسه يداي..

-" (سامر) ... كم تريد ثمنا للتوصيلة أرجوك أطلب ما شئت؟ ".

تكلم صوت من خلفي "ما هذا التخريف، فنحن المغامرون لا نساوم في مساعدة من هم في حاجة إلينا، إنما نعدها من درب المغامرة" . إنهما (شهير) و (وجيه).

نظرت إلى (سامر) وهو يشير بإصبعه إليهم يهز بكتفيه ويفند طلبي "لقد سمعت"

راح (شهير) يشرح الخطوة القادمة" المنطاد لا يسع إلاّ ثلاثة راكبين، وكلما كان أخف ازداد تقدمه فهو مزود بدافعة، كنا نستعمله لبلوغ قمم الجبال، حتى نرتمي بطائراتنا الشراعية كما رأيتنا اليوم أنا و(سامر)، أما وجيه كنا خلفناه للإهتمام بالمنطاد وإعداد العشاء وهكذا يفعل أحدنا كل مرة، لكن (وجيه) طباخ ماهر هههه.

الأهم أن سامر هو من سيرافقك إلى وجهتك لأنه أخفنا وزنا هههه" وينفجر المنصتون ضحكا. يبدوا أنّ عصبتهم مرفهون.

-" ماذا عنكما يا (شهير) "...

-" سنتقدم الطريق الذي أرشدناك، وحتما سنلاقيه بعد عودته فلا تقلق

بشأننا" وراح يهز بكتفي " فقط ركز على قضيتك "

-"كم سيستغرقنا الوصول إلى العاصمة؟ "

-" سيستغرقكما النهار بطوله هذا إن انطلقتم صباحا، أما الآن فعليكما أن ترتاحا".

-"إني شاكر لكم جميعكم من أعماقي، ولن أنسى صنيعكم وفضلكم هذا ما حييت".

.....

لقد تقدمت السفينة في وجهتها الجديدة تقدما شديدا خلال اليومين المنفرطين .

- يداخل (جاد) (شهاب):" ماذا ننتظر الآن بعد كشف مكان احتجازهم يا (شهاب)؟.)

-"ننتظر الفرصة السانحة يا (جاد) ،عند مطلع الفجر ستخف الحركة، وإن حررناهم فسنلقنهم التعليمات مباشرة، كما لا يجب أن تنسى أن الأميرة هي أحد أهم أولوياتنا، نأمل بالأعلى أن ينجح الجنرال في استدراج الضابط إلى الكمين صباحا، أما بالأسفل ففرصة تقديم الطعام إلى الرهائن هي فرصة توغلنا إلي المستودع " .

-"لكن الطعام المقدم للرهائن لا يقدم بالصبيحة ".

-"لسنا في تقدير الأمور بمقاديرها يا (جاد) سنغتال اثنان من المرتزقة بالأروقة، ثم نتقدم إلى القائمين على حراسة غرفة احتجاز أمن السفينة في شاكلة المداومين عنهما بهندام فرقتهم، ولتكن سريعا حتى نغالب عليهما في خطوة ثانية، ثم سيليها انتشارنا دون لفت الإنتباه إلى أن نوقع

بالضابـط في أيدينـا".

بـبروز الشـمس جـرت جثتـي المرتزقـين القائمـين عـلى حراسـة بـاب غرفـة الإحتجـاز إلى الداخـل وبقـي (جـاد) عـلى البـاب تمويهـا حتـى لا ينتبـه لغيابهـما مـن طـرف الدوريـات، ثـم بـاشرت تحريـر أفـراد الفرقـة والمحافـظ رفقتهـم أمرتهـم بنـزع ملابـس المغميـين مـن المرتزقـة، أراد المحافـظ التطـوع في التقـدم لكنـي مانعتـه لأنـه مكشـوف الوجـه، أخـذت باثنـين مـن طاقمـه أهلهـما لكفاءتهـما، أمـرت البقيـة بالاسـتتار حتـى تـأتي الإشـارة مـن الأعـلى، تناولنـا الأسـلحة المتوفـرة.

توجـه (جـاد) وآخـر يحمـلان سـلة بهـا ثالـث مـن غـير زي أمـا المحافـظ أبقيتـه عـلى رأس فرقتـه حتـى يضبـط انتشـارهم، كذلـك أبقينـا حامـل زي بالبـاب إيهامـا بالحراسـة.

توجهـت إلى الأعـلى التبـس بالحـراس عـلى سـطح السـفينة وشـمس الصبيحـة قـد أشرقـت، (جـاد) تجـاوز متاهـة الأروقـة متوغـلا تقاطعـات الحـراس، سـكن عـلى مقربـة مـن حـراس المسـتودع القلـة، ليتسـلل زميـلاه اسـتتارا بالحاويـات فيشـتبها بظـلال الحـرس مـن خلفهـما ينتظـران الإشـارة، ألقـى الجـنرال تعويذتـه عـلى الضابـط ونجـح باسـتدراجه إلى الطاولـة. وقـع أقدامـي عـلى ارتـداد الألـواح الخشـبية لسـطح السـفينة انتهـى إلى ظهـر الضابـط المجالـس للجـنرال.

-"لا تلتفت قم كما أنت.... وتقدم إلى القاعة، هيا".

تلـك التهديـدات كخطـوة أولى، يبتسـم الضابـط في وجـه الجـنرال بعـد أن جـرده هـذا الأخـير مـن سـلاحه ودسـه إلى ملابسـه.

اقتحمت القاعة رفقته مخضعا الحارسين إلى الأرض بتسليم أسلحتهم، التحق (شوقي) من بين الرهائن وفي أثره كم من الشباب.

باشر (شوقي) تقييد الحارسين وناول الشباب الأسلحة، قيدنا الضابط من خلف ثم أشرت إلى (شوقي) بمداهمة قمره القيادة بغطاء خارجي من الجنرال سهل اقتحامها واستيلائنا عليها بما أن الضابط في قبضتنا.

في تلك الآونة على الجانب أغفل الجنرال أحد الحراس بالخارج؛ الذي تفطن إلى أوضاع قاعة الرهائن من الزجاج الكاشف، فأطلق إشارة مباشرة إلى باقي الحراس ليداهموا سطوتنا بوابل من النيران، يصوبون على القاعة، استتار الجنرال بالخارج ومبادلتهم إطلاق النار وقد أردى أولهم قتيلا. كانت إشارة إلى (جاد) وزميليه ليداهما ارتباك حراس المستودع ويستوليا عليه. باشتداد النيران على السطح استتر الرهائن في مستوي أدنى من جدران القاعة، وازداد قلقنا عليهم وسط أهازيجهم وصرخاتهم.

استدعى سطح السفينة دعم أغلب أفراد المرتزقة من كان منهم بالأروقة، سارعت وشوقي تقديم الضابط ومن كان بالقاعة أسارى درعا، ثم ضربت على قفاه ليصدر أوامر استسلام جنوده عبر مكبرات الصوت من قمره القيادة وإيقافهم النيران.

وما كانوا ليفعلوا حتى تعالى صوت سلطته عليهم يأمرهم بالتوقف وتوسط الباحة، خرج الشباب متناولين أسلحتهم يطوقونهم وتحرك المحافظ وفرقته عبر الأروقة و مداهمته لمن بقي منهم ، (شوقي) تلقى إشارتي بسد طريقهم عند الدرج فحوصر أغلبهم بين قبضة (شوقي) والمحافظ...

تمنيت أن تكون وجهة المنطاد إلى مكان ما بذلك الأزرق لنجدة أخ أو إلى البلاد أين الوالدة والرفقة تحت وطأة حكم جديد ولا أداري حالهم،

لم يمنعني القلق من الإستمتاع بسحر المناظر من أعلى، فهي نظرة إشتمالية، وقد صرحت لسامر أن هذه الأماكن تستحق فرصتها بالتجوال ومدى غبطتي له، بدوره راح يعرفني تلك المناطق من قرى وأراضي، مرشد سياحي في جولة ليست من ذلك الطابع، الحمد لله أن الرياح لم تمانعنا التقدم بل حملتنا وأسراب الطيور التي تسابقنا على سواء نحو وجهتنا.

يولد وينشأ الكاتب كليم لصمته وأخلته، أما عن مؤلفاته فهي سفارة للقارئ سواء ركنت بعقله أو بحلته، حال خطيبتك يا (شهاب) مشابه، تفزع من عدتها المقيدة بتابعات الدراسة والتي ركنت إليها جسدا بلا روح إلى دفتر يومياتها أو بالأحرى دفتر شكواها وحزنها، هي التي ارتجت دخول البيت بفستانها الأبيض أصبحت تنهار انزلاقا بجدرانه، تسترق لك النظر من والدتك وأمها التي استأسرت للحزن، تقطع الخضار بالمطبخ لا تستشعر حركات سكينها، مائلة الرأس تستهلك من مثلث النار الملتهب داخلها، أنهت كتابتها أن ".. لم أعد أحتمل غيابك يا (شهاب).."

في حين يتلقى الملك من صهره تهديدات متكررة بعد سماعه أنه استقوى بأهالي الجنوب بالمدينة الحمراء رفقة قادته وأركانه، أما التهديد فكان بابنته الأميرة وكل من على السفينة الأسرى على ألاّ يخطوا خطوة اتجاهه. كان المعلم وخريجو مدرسته السابقون الذين تطوعوا، قد التحقوا بالجنوب.

عـاد النظـام إلى السـفينة عشـية تمكنـت فرقـة التدخـل و(شـهاب) وزملائـه مـن فـك الأسرى الذيـن اعتصمـوا بالأعـلى ملتفـين حـول الأمـيرة، أمـا المرتزقـة فقـد احتجـزوا بالقاعـة السـابقة تفطـن (شـوقي) لـشيء مـا فعجّـل بـه إلى (شـهاب) وهـو يهمـس لـه "إني لا أرى صاحـب الندبـة" (شـهاب) بـدوره تقـدم إلى المحافـظ بذلـك، عـلا القلـق عـلى أوجههـم ليقتنصـه الضابـط فاسـتعرض ابتسـامة التحـدي، دنى منـه (شـهاب) يهـزه مـن كتفـه" أيـن صاحـب الندبـة.. تكلـم أيـن هـو؟" رد بسـخرية " هـه لابـد أن الدعـم في طريقـه الآن، لا تتعبـوا أنفسـكم بتغيـير المسـار لأنكـم إن فعلتـم فسـنغرق سـويا. مـا هـي إلاّ مسـألة وقـت".

بعدهـا طوقـت فرقـة التدخـل الـركاب بحاجـز أمنـي وهـم بالأعـلى، خوفـا عليهـم مـن الطـارئ الجديـد، تحـرك بعـض الجنـود في أثـر صاحـب الندبـة وربمـا يدعـم بزمـلاء لـه.

بلغنـا قمـره القيـادة والتطـرق لتحليـل القبطـان بعـد إبلاغـه المسـتجدات، وهـو الأدرى بإحداثياتنـا، والوضـع هـو تقـدم مفـرط أوشـك الإشراف عـلى شـبه جزيـرة 'أردمـور'، فتطلبنـا تغيـير المسـار مـن المختـصر إلى التعمـق، ولم يمـض علينـا بـه إلاّ نصـف نهـار، وحتـى ببلـوغ سرعتنـا القصـوى لـن ينجينـا مـن سرعـة القـوارب الصغـيرة إن أدركتنـا، تلـك التـي يحتمـل بلوغهـا الأنبـاء ولـن تسـتغرق مطـولا حتـى تعترضنـا مجـددا.

اسـتودعني (سـامر) مسـدلا الحبـل السـلمي لي بأمـل اللقـاء مجـددا، يفضـل التعجيـل إلى صاحبيـه عـلى الحلـول معـي بأحـد المراقـد ونحـن عـلى مشـارف المدينـة التـي تفصلنـي بهـا بعـض أراض زراعيـة ومسـلك واضـح المعـالم،

بسهل وطأت قدماي والشمس تهرب إلى المغيب، ألوح إلى (سامر) الذي يباشر لف السلم "أبلغ سلامي (شهير) و(وجيه)، رافقتك السلامة".

الليل لم يناصف النهار دفئه فبمجرد إن حل بدأت ترتسم علامات شتاء مبكر، تشكل بلورات الجليد و ارتصافها، رحت أتقدم إلى المدينة ممغنطا بما يستقر على ساحة دماغي، كلما تقدمت ازداد الشعور بسطوته، مررت بالعربات وحاويات القش إلى الجدار العظيم الذي احتوى المدينة، بوابته مفتوحة تعبر بك من الفسحة إلى ضيق، ليقابلك منجنيق من حقبة ما، يشيد على المدخل المدينة أزقة مسقفة تركن نيران، يلتف حولها اجتماع المشردين، جثة هامدة إلى حاوية الزبالة، في مرقد من ذلك الشارع انتهى الحجز؛ ولم يمانع المضيف بقائي بالمقهى أسفله انزويت إلى الركن نزعت قفازي جانبا، قبل أن يغادر المضيف إلى الأعلى تقدم نحوي "سيدي هل تشرب شيئا؟"

-"قهوة من فضلك".

على الطاولة العريضة كانت هنالك بقايا صحف ومجلات استطلعت إحداها بتاريخ اليوم العناوين العريضة منها.

فجأة عبر الباب الدوار شاب ذو بنية مهولة يحمل بين ذراعيه جثة هامدة، ربما لم يتفطن لي أو انه من هندامي الذي يخالف زي المضيف استثناني كضيف أو زائر، وبغياب المناوب توجه أولا إلى وضع ذلك الجسم الضرير على إحدى الأرائك، ثم راح يدق الجرس على مكتب الاستقبال

-"هل هناك احد؟ أريد طبيا...أريد طبيا"

أدرك المضيف الأصوات المتعالية "ماذا يجري سيدي؟ "

بصوت عال "أريد طبيا وفي الحال ..وغرفة إن توفرت"

بارتباك "سيدي كل الغرف محجوزة، لكن هنالك ممرض"

-"أتسخر مني؟ قلت طبيا"

طال تجاهر أصواتهما أرجاء النزل وانتشل النائمين أو المسترخين من مراقدهم فهرعوا نزولا عبر الدرج، استقدم المدير بطانية من تحت مكتب الاستقبال، وبعد التعريف بنفسه إلى الرجل طلب تحويل المريض إلى المدفئة عريضة الجوانب فسحت المجال من مقربتها، أشيب في العقد الخامس من العمر شق طريقه إلى المريض، أعترض من الشاب "من تكون؟"

-"أنا طبيب دعني أفحص المريض"

راح يعاين بإصبعيه شريان اليد وبؤبؤ العين للمريضة هكذا بدت شابة عشرينية "لا يزال نبضها مستقرا تحتاج إلى تدفئة وبعض الدواء"

تكلم موظف الاستقبال إلى مديره "إنها تلك الفتاة التي تجانب الناس بالشارع، أعرفها فهي تأبى أن تعمل لأحدهم.. وتختار التشرد على أن تعمل كسائر أقرانها "

صاح به الشاب "عن أي عمل تتحدث، أليس عليكم واجب إيواء المحرومين في مثل هذه الليالي؟"

-"قصدت عمل التنظيف بأحد البيوت ....."

أوقف الطبيب شجارهما "كفى فالمريضة بحاجة الى الراحة " ثم قال للمدير " في غرفتي حقيبة متوسطة قرب السرير فليحضرها لي أحد " حضر المدير حساء ساخنا للشابة بعد أن ناولها الطبيب أقراصا علاجية

لم يبق للفجر إلاّ ساعتين تقريبا، انصرف خلالها الكل إلى غرفهم، أما أنا فراجعني سكون أنفاسي عن موقفي مما يحدث، يعتريني تثاؤب التعب طلبا للراحة وانتصاب الرجل أمامي

"عذرا هل أستطيع إطفاء الأنوار؟"

أجبته "بالطبع يمكنك"

قبل أن ينصرف أردف قائلا "هل أنت أيضا ممن دعاهم الأخرق بالمتشردين؟"

نظرت إلى طابع ملابسي الذي لا يوحي انتمائي إلى النبلاء أو الطبقة الراقية رددت مبتسما "وهل يبدو عليّ ذلك؟ "

-"عذرا لا.. لا "، هو فقط انصراف الجميع إلى غرفهم واستقرارك بمتكئك يدفع إلى التأويل"

-"كلاّ، هو النصيب المشترك كما أعلمك المضيف بحجز كامل الغرف، وكنت بدوري وصلت متأخرا، شكرا على اهتمامك، فما فعلته الليلة ترفق مهيب بالروح الإنسانية"

-"لا نستحق آن يثنى علينا عند المقدرة، بل نستحق ملامة التقصير"

توجه بأنظاره إلى برواز بالحائط "حتى الطيور تسيير في أسراب"

ثم قرر الإنصراف " سيكون ضوء الموقد كافيا، لنسترح قليلا فالفجر قارب على الانبلاج".

-"عمت مساءا"

ضوء المدفئة خيم السكون، والصحوة قد شارفت لاستأنف مسيري، فتحت حقيبة لم تحو الكثير، إن هي إلاّ خريطة قديمة عليها وجهتي،

بقايا طعام، وكنزة عريضة وحبل متوسط الطول.

تناولت الكنزة ثم توجهت إلى مكتب الإستقبال أين المدير خير مداومة تلك الليلية، أسأله عن إحداثيات وجهتي، فدلني إلى نقطة العبور عبر جسر الوادي توغلا إلى القلب النابض للمدينة، لا يبعد القصر الملكي كثيرا عن تلك النواحي، تشكرته بعد وضع الكنزة إلى جانبه "هذا كل ما أملك، فلتقدمه ليقي أحدهم من برودة الليالي" ثم ابتسمت "طبعا ليس في وسعي التضحية بقفازي" راجعني قائلا" لا داعي لذلك، سأتصرف أنا عند اقتضاء الأمر، احتفظ به لرحلتك" تحججت عليه بأنها تثقل عليّ ثم انصرفت إلى الأزقة نادرة الأنوار، وصياح الديوك المتناوب يترامى بأصقاع المدينة...؛ نكتة كلاسيكية هه "مظنة الديك بإشراقه الشمس من صياحه "

.....

اضطرتنا الليلة المنصرمة ببرودتها إلى تأمين بعض الأروقة للركاب، توزيع الوجبات وأغطية وإصلاح ما وقع من ضرر بقاعة حجز الرهائن، ليتم إغلاق فتحات الزجاج تلك، أما الأميرة وقفت وقفة السياسي المحنك أو الراعي المسئول عن رعيته، تم إبلاغها أحداث الإنقلاب الذي جرى لوالدها والبلاد، ولم تنجرّ إلى عاطفة المرأة داخلها، بل فضلت ملازمة الركاب إصلاحا لمعنوياتهم على غرار وفدها الذي ركن بأحد الغرف أمانا، لا أثر حتى اللّحظة لصاحب الندبة الحمد للّه، لكن ذلك لم يمنع الأخذ بتعليمات الكابتن حول تأمين غرفة المحركات خشية تعطيلها رغم تقدمنا إلى أعماق البحر، ومن ثم الإنعطاف إلى وجهتنا في خطة ثانية نعتمدها

تضليلا للمرتزقة ، إلاّ أن المخاوف من إدراكنا لازالت قائمة، فتطور المسافة والوجهة سابقا لم يكن في صالح الرحلة، الآن لا تزال تفصلنا أزيد من 4أيام أو أكثر عن ميناء مرساتنا بعاصمة 'كانتيا' كما أننا لانزال في المجال البحري 'لأردمور' حتى 'كورراديا' لا يمكننا الإلتجاء إليها لما سمعه الجنرال من الضابط بتفشي الإنقلاب.

.....

بعد أن عبرت الجسر تدافعني الإنحدار إلى شوارع أكثر روحا بجو تعمه بهجة الساكن والمتحرك، كأني انحدرت من ملتجأ أو مدينة حديثة التعمير إلى كل ما هو عتيق، ما أقصده بهذا هو حملي على الإستذكار، 'كانتيا' حقا مملكة جميلة، صغير على ساقية ماء يسابق تشكيلته لطوف حمل بتدفق الماء، المحلات بطابع تقليدي انفتحت بانفتاح الشمس على المدينة، انتهيت بساحة تتربع على سوق شعبي، واحتشاد للناس استوقفني إلى أقرب حلقاتهم وجعلني أتطاول حتى أنفذ إلى أحداثها، راقصتي نقري فتاتين يانعتين مقتطفتين من أزهار الربيع.

خير هدية متبادلة بين العشاق هي فرجتهما، أمّا الشابين الذين تداعبا النار على طاولة مستديرة ارتكزت بقائم واحد فحتما مرقا من أصناف الطيور، إتقان مبدع خلف الأثر في أنفس المحتشدين....

نداء باسمي باشرني "حللت سهلا يا(ربيع)"... التفت أبحث عن المنادي لكن لا أثر له "نداء باسمي؟ من ذا الذي يعرفني في هذه البلاد عدا (سامر) وأصحابه؟"، جعلني ذلك أتوارى من الحشد واستكمل غايتي، استوقفت رجلا اسأله عن مكتبة أحد أعلام البلاد المدعو السيد (كنان).

توجيهه لي لم يكن ببعيد عن تلك الساحة، نفذت إليه من زقاق مسقف حتى انتهيت إلى محل مشف الواجهة غلب على جانب طابع الإعلانات، أما المدخل فتستطيع أن تتبين من خلاله الملامح الداخلية.

دخول المحلات العتيقة مألوف لعائديه وزواره بأكسسواراته؛ سواء على المنضد.بالسقف، أو الرفوف والجدران، كانت ساعة رملية أو كريات ممغنطة متناوبة الطرق؟ أو حلقات متدرجة والمتداخلة، مستحث محنطات، صور وغيرها...

مكتبة العجوز في ذلك التشكيل الزجاجي قرب جرس التنبيه، مركب كيميائي على مسرين تصب في حوض نصف ممتلئ، قطرتين من المسارين تناوبا.. تسقط أولى فستحبر السائل أحمرا تكاد تغالب على الإناء حتى تدركها الثانية فتلاشيها بلون أزرق سماوي، ولغزها في الثانية أو الجزء منها، أروقة عتمة متوازية تجرد كتبا جمة، غياب المستقبل فأخذت باستقدام المتوفر بقرع الجرس، أتاني صوت عاملة من العلية " أنا قادمة " تناولت السلالم نزولا مجعدة الشعر؛ شابة في مقتبل العمر انغمست انغماسا شديدا في محتوى أحد الكتب التي تحملها بيديها ولم تشح بأنظارها إلى الزائر خشية انفلات ضالتها، وربما كنت دخيلا لغير ساعتها، استوت بمقابلي وهي تتمايل على محور ارتكازها، ولما استأسر الكتاب إلى حكمها الذي أصدرته، تطرق مذيلة القلم على النص المنشود، من ثم استدلت به إلى أحضان الكتاب، ورفعت ابتسامة وهي ترفع نظاراتها المنزلقة إلى مقدم أنفها "عذرا على الإطالة، مرحبا بك "

لا أدري لما استغرقت أوصافها حيزا من عباراتي، لكن هناك شيء أوحى

بسبق معرفتها من مكان ما ربما حلم ليس بالقديم، لم تبخل برقة صوتها وعذوبته فتأخذ بانتشالي من شرودي الذي أرهبها، تهز بيدها أمام أعيني لتكمل صحوتي "هل أنت متعب؟"

انتبهت بتوتر وجدتني أشد الأنظار إلى عينيها بنبرة متقطعة "كلا كلا.. هو فقط سرحان لازمني مؤخرا، هل السيد (كنان) هنا؟"

-"أعتقد أنه بمكتبه الآن"

-"هل يمكنك أن تعجليه إليّ ؟"

تقمصت ملامحها الحيرة "وهل يتطلب الأمر التعجيل؟".

أجبتها: "ما أمكن" لم أحسب أنها ستهرول إليه لكنها فعلت، وفي الوجيز استقدمت رجلا بطيء الحركة لا قدرة له بمجارات نشاطها، ملقية إليه تمتمة لا تقرأ.

اللفيف إلى يميني يتحرك تحرك مدق ساعة الحائط، فتسلمه السيد (كنان) وجاوزني الحاجز إلى مكتبه...

"كيف تركت معلمك يا (ربيع)؟"

-"لا أعلم الآن لكن قبل أن نفترق أعلمني أنه سيلتحق بالملك الذي استطاع النجاة رفقة بعض أركانه بالجنوب "

-"فلتعلم أن بوادر الصلح كانت لتعود بالخير على المملكتين وعلى المجتمع عامة، أما فاجعة الانقلاب والاستيلاء على سفينة وأسر من بها خاصة الوفد ملكي فلا تعود على الطرفين بالخير، سأحاول زف الخبر إلى القصر، أما أنت فبإمكانك أن تستريح الليلة هنا فغدا ستلعب دورك في التأثير على أحد أطراف القصر".

-وكيف أفعل.. سيدي؟"

-"حتى هذا المصاب الذي تسلط علينا أتى متأخرا شيئا ما، لكنك فعلت حسنا بالتعجيل به"

-"أنت الآمر والمدبر وأنا المبادر هكذا لقنني المعلم"

-"لقد انطلقت فعاليات الألعاب الشتوية للأهالي منذ يومين حيث تقام التحديات بينهم هنا بالعاصمة، واليوم أعتقد أنه تحدي الرماية بالقرب من جبل الذئب، هنالك نجل للملك من ضمن المشتركين اشتبه بالعامة وشب معهم، طفولته وميلاده كانت بإمارة أخرى، أما شبابه فكان هنا وهو ما أبعد عنه زخم القصر وسياسته ،غير مكشوف الشخصية اختار ذلك هروبا من القصر وأسره، مشهود بطيبته يراجع المكتبة كثيرا، غدا سيكون ماراتون السباق سنتواجد هناك للبحث عنه، لكن إن اضطرّنا الوضع ستشارك بالسباق لتبحث عنه فقط حافظ على تركيزك وراحة بدنك لأنه سيكون أكثر الإمتحانات ازدحاما وتجمهرا، وكذلك سأعلمك ببعض الدلائل الوصفية حتى يسهل عليك إيجاده.

أنزلني السيد (كنان) ضيف مكتبته العريقة وهو يطمئنني بالحلول المتاحة، داهمت اجتماعنا قهوة وغزالة ضالة وضعت الصينية الدائرية، سوت شالها تلفه إلى عنقها.... يقدمني السيد (كنان) إلى ابنته وأمينة مكتبته الآنسة (نرجس)

-"إن ضيفنا أحد طلبة المعلم 'الكاساني' الذي كنت أحدثك عنه"

رفعت سبابتها ترعش رأسها وتنعش ذهنها مبدية التذكر "آه لقد تذكرت مملكة 'كاسانيا' المدرسة والمعلم (برهان)، على كل مرحبا بك في الجانب

الأخر من اليابس، أنت محل ترحاب متى حللت" تشكرت ترحابهم وأنا أسائل ذهني "تراه بأي عين رأيتك يا نرجس؟" استأذنت الخروج اهتماما ببعض شأنها. ولم ألبث بعدها مطولا أغادر المكتب إلى ظلال الرفوف التي استهوتني والأروقة المتداخلة مرفقة بدلالات (تاريخ. رياضيات.. فلسفة أحياء.. وغيرها) في آخر الرّف الحائطي وعلى السلم المنزلق الآنسة (نرجس)التي انشغلت برتب بعض الكتب، حتى تنبهت لخطواتي المتثاقلة ووقع أقدامي على الأرضية الخشبية،

فقدر كل مخلوق يحتمل ثنائيته وركن من الماضي يغيبني عنه وحاضر يرتجيني، هنا تم انشطار تفكيري بصوت المتكلم إلى ذاتي آمرا" (ربيع) إلى شق الآثار؛ ذكرى الماضي تكلمك" تعليمات مبهمة والوجهة التي أتقدم لها ليست بأعين (ربيع) ولا حواسه ولا حتى خطواته، إني لا أستشعره؛ بؤبؤ متسع ويد مرتجفة تفتح خزانة صغيرة، وإحاطة ذلك الصندوق بأنامل أبدت شررا مسبقا بظلمة من ذلك الحيز، الصوت نفسه يتردد "آن أوان تجديد العهد "، .يستبيح الببغاء كلمات مايسترو الربيع القائمة بذاتها، يستوي على قمة فستانها المزهر ويكشف تقدمها، فتقلص البؤبؤ إلى حجمه العادي، وتقمص شخصي شخصه الضائع، ليلتفت ببطء لا يساور الشك، فتتهلل أساريرها ضاحكة من نكات الببغاء "صبببباااح الخخخيييير.... صبببباااح الخيييير" فبادلتها الضحكات "مسااااء النووووور" -هههه- وتمايل ضحكاتها فميلها الذي شابه فن الباليه بعد أن سكنت وطوفان من التشويش بالأجواء يحيطها من أصوات متمايل الرأس، ذلك الببغاء السخيف "واللّه لن تنال مقام فنها بتقليدك المتقطع أيها الغبي"

ثـم أردفـت" إنـه حديـث عـلى الـكلام، هـذا مـا اسـتطعت تعليمـه لـه حتـى الآن، لا يفـرق بـين الصبـاح والمسـاء"

مدحتهـا قائـلا: " هـذا رائـع، قـد عجـز أهـل العلـم عـن تلقـين البـشر فكيـف بالطيـور"

ردت قائلة "هذا يعتمد على المعاملة"

-"هو كذلك"... وأنا أراجع نفسي "ماذا تراها أدركتني أفعل هنا ؟".

كـسرت اسـتقرائي بسـؤالها المتوقـع "هـل تبحـث عـن شيء خـاص هنـا بالأثريـات؟"

-"كلا، لسـت أخـص شـيئا، فـكل مـا بهـذا الكوكـب الصغـير الجميـل امتـاز عـن غـيره ويدفـع إلى الإستكشـاف، أرى إبداعـك فيـه"

-"هـو في الأصـل إرث مـن أبي، أمـا أنـا فأوليـه العنايـة والترتيـب وتجديـدي ليـس بالبليـغ، دعنـي أعرفـك أكـثر إلى معـالم الكوكـب الصغـير كـما سـميته" أشرت إلى تقدمهـا أولا بأسـلوب النبـلاء أواري يـدا إلى الخلـف أبسـط أخـرى للتوجيـه "السـيدات أولا" أمـا اليـد الخلفيـة فعـدت أحملهـا بخطـوة إلى الـوراء لغلـق الخزانـة في خفـاء، أطلقـت (نرجـس) إشـارة صوتيـة لأليفهـا، أراه يسـتجيب ويسـلك ممـر ذراعهـا حتـى يسـتقر بيدهـا فتربـت عنـه وتحيطـه بيـد الإشـارة إلى المعـالم كـما اصطلحنـا.

انتهـت جولتـي والآنسـة (نرجـس) خفيفـة الـروح، حتـى أني أكاد أفقـد مهمتي وقضيتـي فالمعـالم التـي احتسـبت النجـاح في وصفهـا وترسـيخها لي فلـم تكـن إلاّ هـي بذاتهـا، لكنهـا لا تـدري، أمـا المنتظـر مـن هـذه المحطـة وذلـك الركـن لم يبـدو بعـد، نعـم ألفينـا سـيدها لـدى المكتـب، السـيد(كنان) الـذي يجـدد

ترحابـه وطمأنتـه، سـألني عـن المكتبـة وأركانهـا حتـى انتهينـا إلى التشـكيل الزجاجـي الـذي طارحنـي اللغـز فيـه، كنـت لأجيبـه قبلهـا وأنـا أنظـر إلى أعـين ابنتـه وداخـلي يجيبـه "أن أثمـن مـا بهـذه المكتبـة هـو مـن صلبـك يـا سـيد (كنـان)"

تركتنـا (نرجـس) تعـبر الـرواق الـذي ينتهـي إلى بـاب سـكنهم المجـاور واللصيـق، وربمـا بالدقائـق القليلـة الماضيـة كنـت انتبهـت إلى تحرجهـا مـن تحديقـي الـذي يصـب في عينيهـا، يخـترق المشـف مـن زجـاج نظارتهـا وهـو مـا كانـت تلاشـيه بارتقـاء أنظارهـا إلى قمـم الرفـوف.

فتـح السـيد (كنـان) بابـا مجـاورا إلى بـاب مكتبـه غرفـة مبيتـي، لم تخلـو تلـك الغرفـة مـن الإكسسـوارات ولوحـة الشـطرنج المبسـوطة تمثـل أرض المعركـة الشـاهدة عـلى طفولـة السـيدين (كنـان) و (برهـان)، بعدهـا غـادرني بـدوره يـترك لي حريـة التـصرف عـلى حـد وصفـه، اخـترت الجلـوس إلى الأريكـة المقابلـة للبـاب الزجاجـي النافـذ إلى الشـارع، لكنـي مسـتغرق في لغـز السـيد (كنـان) حـال النشـاط بالمكتبـة اليـوم راكـد وهـو مـا ذكرتـه (نرجـس) سـابقا .ارتـد كتـاب مـن الرفـوف تلقائيـا وانفتـح عـلى الواجهـة الأرضيـة ليـس ببعيـد عنـي، دنـوت التقطـه أقابـل مـا انفتـح مـن صفحاتـه لناظـري، واغمـس إبهامـي للإسـتدلال بـين الصفحـات المفتوحـة محـل العلامـة، أقابـل نصـا:

{{أنامـل تماثلـت للشـفاء مجسـاتها تحـم درعـه، ويقظتـه المبكـرة تفـرغ إلى الرعيـة...

أميرتـه في شـد حزامـه إلى خـصره " قـد أبكـرت سـيدي ولم يمـض عـلى يقظتـك إلاّ سـاعات قليلـة، لم تأخـذ راحتـك ولم تتماثـل للشـفاء بعـد"

-"لا داعي للقلق .نسيت سؤالك حول جامعة الطرائف مالي لا أراها بجواري؟ هي غائبة عني أين تكون تراها؟ ..."

وهي تضع مرهم على ندبات وجهه تعتقت ريقها بصعوبة ولم تجب .

-"هل تسمعين ما أقول، أم أنها تكون رفقة الصغار؟" انكشفت بتهربها عن الإجابة تطأطأ رأسها انصرافا وتمسح يديها بالمنديل، شد إلى يمينها بقوة وهو يصرخ "لما تتملصين هل هناك ما تخفينه عني؟.... ماذا تره جرى بغيبوبتي؟"

-"لاا ..لا يا سيدي هذا ليس جيدا لصحتك "

-"قلت أخبريني وكفى" أزاح يدها الموازية لوجهه وخرج مزمجرا، أعتب الخيمة بخطوتين ليقابل وزيره" حمدا لله على سلامتك و تعافيك سيدي".

-"ليس هذا... ليس هذا.. وعلك ستجيبني أنت بما جرى لجامعة الطرائف خاصتي.. إياك أن تخفي عني شيئا..."

لم يكد ينطق حتى إختنقه بيديه "هيا أجيبوني ...أيها الخونة".. لم ينتبه إلى جنراله يشد على كتفه" سيدي على مهلك سيدي ...أفلته ...أنا سأخبرك"... بدأت رعشة تسري في جسده" هيا قل..قل..قل لي شيئا"

فأخذ الجنرال يسحبه مجددا إلى الخيمة، كي يباشره سرد الحادثة " ارتح سيدي هنا .... سيدي أنت لا تعلم ما جرى في غيبوبتك، لكنك ربما تذكر ما حصل قبلها"

-"نعم شيئا من ذلك"

-" لكني سأكلمك عما حدث قبلها أيضا وفقا لتقديرنا وستجيبني إن تذكرت، أثناء محاولتك الخروج من خطوط العدو لا نعلم ما تعرضت

لـه لكنـه حتـما اسـتنفذ منـك جهـدك كلـه إن كنـت تذكـر، وبقيـت عالقـا بالحقـل الموحـل، ولمـا غبـت عـن الوعـي حاولـت جامعـة الطرائـف إيقاظـك لكنهـا فشـلت. بعدهـا سـارعت إلى إبلاغنـا عـن مـكان تواجـدك، وذلـك عـن طريـق ابنـك الصغـير كليمهـا الـذي تخاطـر معهـا مثلـما تفعـل سـيدي وهـذا مـا حـدث "

اكتفـى الملـك بالإنصـات والدمـوع قـد أثقلـت جفنـه لتفتـح مجراهـا وهـو مطأطـأ الـرأس يسـتند سـيفه "مـاذا حـدث بعدهـا؟... مـاذا؟"

-"سـيدي بعـد النجـاح في إنقـاذك اختفـت جامعـة الطرائـف، في مفاجـأة الجميـع، حاضرهـم وسـامعهم ،حتـى ابنـك غـرق في الحـزن عنهـا ولم تظهـر بعـد".

-"لا ...لا....لا هذا لا يمكن لم تكن لتتركني..."

يشد سيفه إلى السماء "لاااااا"

دخل الإبن الصغير فجأة يرتمي إلى حضن والده الملك المنهار

"أبي أبي .حبيبي"

الحزن واصفرار المقعد التبس بملامحه

"نعم بني.."

"أبي جامعة الطرائف هنا أبي (يشير إلى قلبه) هي من أخبرني أبي هي ...}}

تعويـذة النـص انطلـت عـلي، فرفعـت بـصري في فـراغ ضئيـل الجاذبيـة حالـك السـواد، سـناها تـلألأ ومسـيري إليـه في خطـوات متطاولـة كغـزال رنـة -أقصـد تحـركي الى مصـدر النـور تلـك- ، انفقـس ذلـك الكائـن الملائـكي ذو المؤخـرة التـي تشـبه جـرة المـاء مدببـة و مضيئـة، كائـن قبـع بصنـدوق الركـن مطـولا،

هكـذا يبـدوا مـن دنـوي لـه مبتسـما اغترفتـه بيـدي أرفعـه بمـوازاة وجهـي وهـو يبادلنـي الابتسـامة، مـن ثـم رمـاني بحفنـة مـن إبـره المدببـة عـلى ميسرة صـدري حتـى الاغشـاء.

.....

أخـذت أتبـين خفـي الملامـح الـذي توسـط السـلالم لنقـص الإضـاءة، وهـو يوجـه سـلاحا نحـوي. تحريـك أقسـام السـلاح تهيئـا لإطـلاق النـار، داهمـه ضـوء شـديد مـن خلفـه ليكشـف ملامـح صاحـب الندبـة يسـتهدفني، لم يكمـل التفاتـه حتـى أردي هالـكا متدحرجـا رفعـت يـدي إلى الأعـلى معلنـا استسـلامي ليدنـوا منـي مصـدر الضـوء ذلـك مـن غـير حامـل، شـدة سـطوعه لم تكشـفه ثـم أخـذ يدفعنـي مـن الخلـف إلى التقـدم واقتـادني إلى مخـازن الطعـام؛ تحديـدا إلى أكثرهـا فرشـة بالغبـار ركـن الطحـين، ثـم تقدمنـي وعـلى آثـار الغبـار الأبيـض عـلى الأرضيـة الخشـبية ارتجـل رقصـة عشـوائية، بعدهـا عـاد ليدفعنـي إلى التقـدم، رميـت خطـواتي ثـم خـرت أرضـا مقيـدا بعبـارة متروكـة الأثـر، كتبـت عـلى الطحـين "انـه.... أنـا أخـوك (ربيـع)"

.....

هـب مـا بداخـلي إلى صحـوة مرتجـة في حلـول مطلـق لليـل، أيـن ازدحمـت تلـك الصحـوة بفـوضى الأثـاث المحدثـة ، ومـن يسـند رأسي الآنسـة (نرجـس) والسـيد(كنـان) لتتفاعـل الآنسـة مـع أولى لحظـات اليقظـة "هـل أنـت بخـير؟ ... أبي أنظـر لقـد فتـح عينيـه "

أردف السـيد (كنـان) "بنـي هـل أنـت بخـير؟ سـاعديني يـا أبنتـي على إسـناده، ضعـي الوسـادة إلى ظهره"

رحت أطرد من تثاقلي حتى استقام لساني " ماذا حدث لي ..؟"

-"بنـي عـلى مهلـك، خـذ أنفاسـك وأخبرنـا أنـت بمـا جـرى حتـى نقـع إلى تفسـير أوضـح"

-"أنـا لا أذكـر المشـاهد بصفـاء، رأيـت جـزءا مـن داخـل السـفينة، التقيـت فيـه ب (شـهاب) وقـد كان في خطـر محـدق .بعدها...بعدهـا لا أذكـر"

-"من يكون شهاب هذا؟"

-"(شـهاب) هـو أخـي التـوأم الـذي زف إلينـا أنبـاء انقـلاب الحـادث عـلى مـتن السـفينة، وهـو عـلى متنهـا الآن لكنـي كـما ذكـرت قـد وجدتـه في مـأزق... أم أنـا أتوهـم؟ حقـا لا أعلـم ".

-"أنت لا تتوهم يا (ربيع)، والآن أستمع لما ستحدثك به (نرجس)"

اسـتوت (نرجـس) بمقابـلي لتحدثنـي وعطرهـا ينعـش صحـوتي "(ربيـع) لا أنـا ولا أبي أمكننـا تصديـق مـا جـرى اليـوم برغـم أنـه كان موروثـا بأيدينـا وبسـعة اطلاعنـا لفـترة مديـدة، إلاّ أن جردنـاه إلى الخيـال، لكنـه وبوضعـك الراهـن قـد تحقـق، ومـع مـن؟ مـع رجـل قـدم مـن الجنـوب هـو أنـت"

-"أنـت الآن تربكينـني يـا (نرجـس)، هـل يمكنـك الاختصـار وإعلامـي بمـا يحـدث جملـة، فـلا داعـي للتدقيـق والتفصيـل .."

-"سـاورني الشـك منـك مسـاء يـا (ربيـع) لكنـه كان في محلـه، قـد وجـدت قشـور الإفقـاس بالصنـدوق، وأظـن أن نبـؤة مـن المـاضي قـد تحققـت، معـك أنـت الرجـل مـن الجنـوب"

في تعجب "نبؤه؟"

-"قـد اختارتـك جامعـة الطرائـف لغايـة مـا، مـوروث سـبت لمـا يفـوق 13

قرنا، أنتقل جيلا عن جيل، لتتخاطر أفكاركما معا في عهدنا هذا .. أرجوك أعذر ارتباكي لكني متحمسة "

أخذت أقاطعها الكلام بلكن وكيف وأخواتها لترفع في حضرتي سبابتها تطلب سكوتي والإمعان " الآن أغلق عينيك لتركز، ولتستدعها من مكانها"

-"من أدعو ؟"

-"جامعة الطرائف خاصتك"

أسدلت جفني ولا تركيز، ثم فتحتهما في لحظة أرفع يدي مشيرا إلى جهلي بمراسيمها لأجد (نرجس) تطرق بسبابتها إلى مابين عينيها أي ركز ممانعة تذمري، من ثم أغلقت مشددا بحاوية الظلام أتدرج إلى الارتخاء، أنتقل عبر سيالة تحمل تيارات متقاطعة الإشارات والاتجاهات، لأفتح جفونا أكثر شفافية بزاوية نظر أكثر اتساعا، ازدادت تقدما بين أروقة الكتب إلى مكان أكثر اتساعا وإنارة، هو مجلس على أرائك يجمع الآنسة (نرجس) والسيد (كنان) يسلطان الأنظار إلى شخص أعرفه هو انعكاسي بالمرآة، لكنه ثلاثي أبعاد أي جسد ساكن، إنه أنا في الحقيقة مغلق العينين، أول المنتبهين هي الآنسة (نرجس) تحجب علامة الدهشة وانفتاح فمها؛ بمزدوج يديها المطبقتين، تتدارك أنفاسها و تهز جسدي القابع بقربها" (ربيع)... (ربيع) إليك افتح عينيك الآن ...أنظر" والسيد (كنان) يرتد إلى الوراء من شدة الدهشة، استقللت ببصري المعتاد من النظر ألاشتمالي لحاملة النور التي أخذت باللف حولنا، وإجابة صدمتي والتساؤلات القابعة بنفسي جاءت بنص تعريفي، انتقل من مصدر ما على لسان المثقفة الآنسة (نرجس) " لا داعي للخوف، فجامعوا الطرائف كائنات

ملائكية صغيرة بمؤخرة مضيئة، كانت تجمع دعابات عمال المشغل أو المنجم بأرض السلام حملت من مغامر استطاع النجاح بأحد اختبارات تلك الأرض وتحصيله الحروف اللازمة، هي لا تأكل ولا تشرب تأخذ طاقتها من نومها أو سباتها"

تكلمت ل(نرجس) ولم تسكن تلك الكائن بعد من التحرك العشوائي واللف حولنا "لا أفهم شيئا"

كشفت عن غماز تيها وهي الأكثر هدوءا بيننا" بإمكانك أن تدعها أولا لتسكن براحة كفك، فأنت كليمها وفق الأسطورة" اعتدلت واقفا أفتح يدي فارتاحت برباعيتها ولفت جناحيها إلى مصدر نورها المشع، شعور بالسعادة يلفني أي انشطار كنت أعيشه، غصت رفقتها إلى مسرح الظلال بمسرحية انعدم فيها الكلام للسامعين تكلم داخلي بصوت أكثر رقة "أمل أني لم أفزعك يا (ربيع) فأنا جامعة الطرائف خاصتك "وداخلي يطارحها " كيف أستطيع أن أكلمك من غيرهم، هل أنا الوحيد من يستمع لكلماتك الآن؟ وهلا كشفتي عنك أكثر؟" ردت علي " سأكون سمعك وبصرك إلا لسانك، فلا أقدر على تكليم الغرباء، أنا هنا لمساعدتك سأكون حيثما تريد، كما وجب علي اطلاعك أن قدراتي محدودة وإجاباتي عن أسئلتك ستكون محدودة أيضا، ولأطمئنك بخصوص رؤيتك السابقة وأنت مغمى عليه، كانت حقيقة وأخوك قد نجى لم أستطع نقل عباراته لك بعد انفصالك عني".

كسر حاجز الصمت الخارجي وقوف الآنسة (نرجس) بمقابلي تتحسس الكائن الملائكي الذي سبت لعقود بمكتبتهم وهي بدورها تقاسمنا

السعادة ليتكلم والدها: " إذن هكذا تكون جامعة الطرائف"
فتجيبه "نعم، أبي أنظر كم هي جميلة ولطيفة ".
فيقترب الأب بدوره مذكرا بانتصاف الليل والخطة المتفق عليها، ثم غادرنا يترك ابنته وقد سكن الكائن الملائكي براحتها كما فعل الببغاء عشية، بهذا الوجيز يزداد اختصار المسافات وأخشى أنه يخيل إلي فقط، تفطنني المروضة مجددا بالدعوة إلى مائدة العشاء.
العشاء الذي تأخرنا عنه مطولا أما جامعة الطرائف تستأذنني الرجوع إلى صندوقها وركنها المتطرف ...(نرجس) الأخف روحا تتهلل بين الفينة وأختها لترهقني بابتسامتها المتكررة، ونسمات عطرها كلما لوحت بشالها تجتاحني أمواجه، من جانب آخر يقبع خيال أمي أمامي يجالسني محدقا بي في تجديد للشوق لها ولطعامها، والآن أنا بمائدة طعام جديدة كأول يوم بعد مغادرتي لها في حضرة هذه العائلة 'الكانتية' و في أجواء شمالية، بعد الفراغ من جلسة الشموع تواجدت جامعة الطرائف من أجلي في كبد الليل والنوم فر من عيني، أنظر إلى سقف الغرفة أستبيحه نحو فسحة السماء فأتخيلها كلها صحوة، ليل بقمر مكتمل جسدته أمي، و (نرجس) نجم الشمال، والشهاب العابر كان جامعة الطرائف... أغلقت عينيا ب'كانتيا' لأنفتح على شرفتي وعبر نافذتها تبدت تفاصيل غرفتي، فالإزار مفتوح لنفاذ نور القمر، وبعمق الغرفة انكمشت المعرضة عن الأحلام الفارة إلى التجرد، أستأسرت لقضبان ثوبها هكذا تبدو الخطوط الطولية الرمادية على ثوبها الأبيض، قمر يتآكل و تتآكل أيام تعدادها معه، هذا ما حُملت رؤيته، جعلني أتيقظ من بوابة التخاطر إلى تكفير

حرقة بحق أمي، فأضرب بيميني على يسار صدري حتى انفتحت الجراح وكنت أظنها وخزات، لكنها أعمق، بدم طفى ببقعة على قميصي الداخلي، لبثت على هذه الحال حتى الصباح، يقدر أن نوم الليل لا يجافي من ألم به حزن فقط، وربما حتى من به سعادة لأن (نرجس) قد أبكرت وهي تطرق باب الغرفة تستأذن الدخول علها لم تقتطع من النوم إلا القليل، كنت أغفلت أمر لطخة الدم على قميصي الداخلي والتي كان يحتمل حجبها من كنزتي المعلقة، ولم أراجع تلك الجراح التي أحدثتها إبر جامعة الطرائف ومدى عمقها.

الحمد لله أنها لم توقع صينية الإفطار وإلقاء تحية الصباح، لأنها كانت تركز على تلك الأولى حتى أمنتها على الطاولة، أرد عليها التحية وأعتدل أواجهها، ولما استوت تقابلني تفرك أصابعها، حتى جحظت وقضمت تلك الابتسامة التي جهزتها تشير بيدها إلي يسار صدري، ولم توفق في عبارة سؤالها المتوقع "كيف حالك ؟" بل اقتربت اقترابها الشديد تستند إلى كتفي وتمسك بقميصي وتتلعثم "ما.. ما.. هذا (ربيع) ماذا حدث لك آآآه يا ربي"

اصفرار وجهي يكذب طمأنتي لها، بعد أن مررت أنظارها على ملامحي "لا شيء... لا شيء يا (نرجس)"

أصرت على جراحي وهي تطالب "أرني جرحك يا (ربيع) هيا"

أجيبها "إنها مجرد وخزات من فعل جامعة الطرائف" هنا انكشف معدنك يا (نرجس) وزالت الغشاوة، أراك تهرولين إلى عدة الإسعاف وتصرين على وخزات بحجم اللاشيء، تكمينها وتمالئينني على الراحة،

ارتديت كنزتي طلبت منها ألا تقلق السيد (كنان) بتصرفاتنا وما جرى، ارتشفت القهوة إلى جانبي وهي تعتذر لما بدر بالمكتبة كأنها المتسبب بالأحداث، أصبحت تطمئنها ابتسامتي أردت، أن أغتنم ما بقي من ساعات الصباح أسائلها عن شخصها ريثما يلتحق السيد (كنان) ويطلعني على مكان انطلاق الماراتون الذي كان مقررا اليوم .

-"كم عمرك يا (نرجس)؟"-وقيل أنه السؤال المغضوب عليه عند الجنس اللطيف-

-"أنهيت عامي السادس عشر ومقبلة على السابع عشر قريبا جدا، ماذا بشأنك يا (ربيع)"

-"أنا في التاسعة عشر".... استوقفت إجابتي فنجانها ببعد شعرات عن شفاهها، والذي تناصفت المسافة بينها وبينه بدنوها منه، ثم استأنفت لكنها لم تبدي الاستغراب الذي محله أني أبدو أكبر سنا، ربما عشرينيا أو أكثر...

فسرعت بسؤال ثاني:" كيف تسير أمور الدراسة؟".

يبدو أنه كان لكلينا حلقة مفقودة في مسيرته ولم أظن سؤالي بهذا العمق.

-"أنا أنهيت تعليمي بسن مبكرة هنا بالعاصمة، بالمدرسة الملكية و لم أختر الخروج من إرث أبي، كل ما حصلته يخدم المكتبة وهذا الصرح العلمي، فبعد مغادرتنا أمي الحياة في سن مبكرة من طفولتي وتفرغ والدي لي بكل ما أجاد ..أحاول الآن تعويضه تعبه، لذلك أصررت على علم المكتبات رغم تفوقي وحثه لي على سلك الطب ".

-"أنا آسف على فقدانك"

-"لكني بهذا أصبحت اشتمالية، أحاول التمرس في كل شيء وهذا ما وفرته لي المكتبة"

داهمنا السيد (كنان) الجلسة ليحظى بعناق ابنته ووردته كما وصفها، هو وقع اسم على مسمى لفتاة الشمال، وأردف قائلا ومفصلا :"فلننطلق الآن يا (ربيع)، منطلق الماراتون سيكون خارج العمران بحدود الغابة التي يتوغلها المتسابقون من مسار ضيق يشبه المتاهة، لكن لأغلبهم الحيلة فهم على دراية تامة بالاختصارات والتشعيبات إلى غاية القمة أين خط الوصول".

أجبته "إذن هيا لننطلق حتى لا نتأخر..."

رد علي ملوحا بسبابته "هذه المعلومات ستفيدك في حال الاضطرار... والآن هيا "

تكلمت (نرجس) من خلفي "الم تنسى شيئا يا (ربيع)"وهي تشير بإبهامها إلى الأروقة خلفها.

فرقعت بإبهامي ووسطاي معلنا تذكري، أتوجه صوب الركن وهي إلى جواري تذكرني بصوت منخفض "انتبه إلى نفسك جيدا... حبذا لو كان لك متسعا من الوقت حتى ترتاح وتتعافى"

وأنا أفتح الصندوق مجددا على الطرائفية، تفتح جناحيها تصبيحا بي اقتطعت لفتة طمأنة إلى (نرجس) "ليس هنالك ما يدعو إلى القلق" أشرت إلى جامعة الطرائف أن تسكن بحقيبة ظهري.

توجهت إلى السيد (كنان) بانتظاري.. الجو اليوم مخالفا لجو الأمس بدفئه واكتمال شمسه وحيوية شوارعه، أحد معارف السيد (كنان) يحيينا و

يعرض علينا توصيلة على متن عربته، وهكذا وصلنا عبر السيل الذي لم ينقطع إلى التجمهر بمحيط الغابة، أين تواجد ذلك الكم هائل من الرعية والمشتركين بالانتظار، أنزلنا إلى خيمتي التسجيل والترقيم والتي اصطفت أمامها طوابير متفاوتة رغم انطلاقنا المبكر إلى هذا المعسكر، والبحث عن الأمير أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، طلب مني السيد (كنان) التسجيل احتياطا في حالة لم يظهر الأمير، انتهت التسجيلات وأنا أحمل رقم يؤكد لي كثرة المتسابقين في حال كان الترقيم عدا، وهذا ما لاحظته من الطابور فالذي قبلي حمل 170 وأنا 171 والذي بعدي 172وهكذا ...

والآن أنا أبحث عن السيد (كنان) حتى كلمتني جامعة الطرائف من حقيبتي "هل أبحث لك عن السيد (كنان)؟"

أجبتها مترددا "لا داعي أن تنكشفي وسط هذه الحشود، مهلا انتظري... هل يمكنك أن تجدي لي الأمير؟"

-"كلا يا (ربيع) فأنا أستقي من تركيزك على ذاكرتك و أفكارك فقط، وأنت لا تعرف شكله ولا تركز على شخص محدد"

-" لا بأس بإمكانك الآن أن ترمي بأنظارك خلسة ومساعدتي في البحث عن السيد (كنان)"

داهمنا إطلاق الإشارة بالفسحة المشرفة على الغابة، أين أخذ المتسابقون بالانسياب من بين الحضور وهم الذين ميزوا بالأوشحة البيضاء اصطفافا إلى وتر بالحلقة هو خط الإنطلاق.

أدركنا السيد (كنان) بعد أن أشارت جامعة الطرائف إلى تقدمه نحونا،

بادر بشد المنديل الأبيض الذي يحمل رقمي إلى ذراعي وفرز للتعليمات لما تبقى من وقت" اسمع يا (ربيع) ليس هنالك بد من التحاقك بالسباق لكن مهما حدث فلا تحد عن المسار.. هل سمعتني حافظ على المسار، فاللذين تراهم يسلكون المختصرات هم من يطمح للفوز غشا وهذا ليس من شيم الأمير لذا سيكون لصالحك إن التزمت بذلك ... موفق بني.." تقدم لخطوات ثم رجع" (ربيع) لن تجدني بالإنتظار، بل سأتحرك بدوري إلى أحد معارفي المقربين للملك علّه يفاتحنا" أومأت بهضم التعليمات، وبخط الانطلاق انحنيت أدس أسفل بنطالي إلى جواربي، انطلاق الإشارة والرتم السريع للكوكبة الأم من ثم التوغل إلى الغابة والمسلك الموحل، تواجدت بمؤخرة الكوكبة بل تعمدت التذيل حتى أنفرد بالمحادثة إلى جامعة الطرائف، ونحن نتواجد بهذه الغابة التي لا تختلف عن تلك في الكثافة وطول الأشجار، هذا ما يوحي بصعوبة المهمة كما أسلفت الذكر أشبه بالبحث عن إبرة وسط كومة قش "يا جامعة الطرائف قد استعصى اسمك على لساني، هلا وجدتي له اختصارا؟" تبادرني ضحكاتها ... "بإمكانك أن تدعوني (فيروني)" أهز برأسي "لا بأس بهذا ...(فيروني)... (فيروني) ... أريد أن أسالك بخصوص يوم تواجدي بالغابة الموحشة، وما حدث لي خلالها، هل كنت تتواجدين؟ لأن صوتك هذا تردد إلي بصيحات تحذيرية قبل أن أوشك على الهلاك... وحقيقة لا أدري ما جرى بعد إفلاتي المقود"

أجابتني بتكتم "منذ ميلادك وأنا أتوفر على اسمك وفصلك ونشأتك لقد تواجدت معك لأكثر من مناسبة وأخشى أنك لا تذكر" هي تعلم

نشـاط ذاكـرتي الغـرق في الأوضـاع الراهنـة وتعلـم ماهيتـي وسـؤالي القـادم لهـا "(فـيروني) هـل بإمكانـك أن تتواجـدي لأجـلي في مـكان مـا؟" ردت موافقـة" طبعـا سـأعتمد عـلى تركيـزك" فسـألتها "هـل بإمكانـك أن تطلعينـني عـلى أحـوال (شـهاب) الآن يـا (فـيروني)؟" فانطلقـت ولبثـت قليـلا أنتظـر اسـتطلاعها الـذي أوفـد إلي بصعقـة ترامـت بـين جـدران جمجمتـي هـي صرخـة مدويـة كادت تسـقطني الأرض " لقـد أدر كتهـم القـوارب يـا (ربيـع)... لقـد أدرك المرتزقـة (شـهاب) والسـفينة"

.....

بينـما أقلـب بـرأسي تلـك المداخلـة بعنـوان أخي والتـي أوقعت صاحـب الندبة بقبضتنـا، وحسـمها بإنقـاذ شـخصي مـن عيـاره الموجـه نحـو صـدري، حـالي الآن بمقـدم السـفينة أتعـرض للهـواء الـذي تجتاحـه فيسـتهلك مـن داخـلي ويخـرج زفـير التعـب، لا زال يمتحننـي هـذا المركـب ويداهـم صفـوتي فيـدق الجـرس مـن بـرج المراقبـة، انـزلاق لأحـد المراقبـين مـن العارضـة يسـابق الزمـن إلى القمـره والأخـر يشـير إلى أثـر السـفينة يثـير الانتبـاه إلى شيء مـا، انطلقـت جريـا إلى مؤخـرة السـفينة فأجـد (شـوقي) يسـابقني وأفـراد مـن الأمـن بـل حتـى مـن اسـتجم مـن العـوام بسـطح السـفينة بعـد أن ظفـروا بذلـك المجـال مـن الأمـان، هـذا تكلـما عـن الحـاضر أو وقـت سـبق ليـس ببعيـد، أمـا الآن لا نأمـن الواقعـة وقـد بـرزت قـوارب المرتزقـة في أسـطول عـرض هـذا البحـر و مـا نحـن فاعلـون.. ارتصفنـا بمؤخـر السـفينة نطالـع القـادم، ليشـهد سـيل البحـر عـلى سـيل مـن القـوارب تجتاحـه في محاولـة افتراسـنا، تتحـرك بسرعـة تفـوق سرعـة مركبنـا، بهـذا دوت صرخـات النسـوة الشـواهد ومـن بحجورهـن

مـن صبيـة، وفـزع الحشـد المتواجـد حتـى انتقـل إلى مـن اسـتقل بالأسـفل، لتغلـف السـفينة بحقـل مـن الخـوف والرهبـة، يكلمنـي (شـوقي) "كيـف تراهـم أدركونـا بتلـك السرعـة يـا (شـهاب)، مـا نحـن بفاعلـون؟؟" لم أنتبـه لكلماتـه ليهـزني مجـددا" (شـهاب) مـاذا نفعـل الآن؟" أخـذ ردا مـترددا مـن شـفاهي "لا أدري يـا (شـوقي) فلنلتحـق بالقبطـان واجتماعهـم ولـنرى درايتهـم بالأمـر" ارتكـزني يوجـه ذراعـي "إذا هيـا" طـوق أفـراد الأمـن السـطح وأنزلـوا كل مـن بـه إلى الأسـفل، شـاركتهم الأمـيرة وبعـض وفدهـا تهدئـة الأوضـاع لمثـل هـذا الموقـف الحـرج .

دخلنـا إلى القمـره أيـن اجتمـع كل مـن القبطـان، والمحافـظ والجـنرال، خاطبنـي الجـنرال مبـاشرة "(شـهاب) لقـد أتيـت في وقتـك لتشـاركنا التدبـير، آتينـا مـا عنـدك" تكلمـت إلى القبطـان" مـاذا تراكـم فاعلـون؟" وهـو الـذي قلـت حلولـه يـرد "اسـمعني يـا (شـهاب)، مهـما تطلبنـا فـلا يجـب أن تطـأ أرجـل المرتزقـة السـفينة " هـززت رأسي موافقـا إيـاه وتكلـم المحافـظ " ليـس لهـا حـل إلا الرهائـن المحتجزيـن بأيدينـا " أيـدت جـزءا مـن مداخلتـه وعقبـت عـن الأهـم منـه "هـم حتـما لم يتبعـوا أثرنـا مـن أجـل رهائنهـم، إنمـا للاسـتحواذ عـلى السـفينة، لكـن بمـا إن رهائنهـم إلى أيدينـا فسـندفع بالضابـط إلى مفاوضتهـم " داهـم اجتماعنـا أحـد الحـراس إلى القبطـان " سـيدي لقـد بـدأ أسـطولهم بالانتشـار في تشـكيلتهم عـن بعـد، وهـم يقتربـون أكـثر فأكـثر لإحاطتنـا مـن كل جانـب" لاح لي إقمـرار في النهـار عـبر النافـذة، هـو ذلـك الكائـن شـديد النـور مـن تلـك الليلـة، انفـردت بالانتبـاه لـه، أخـذت عـذرا وخرجـت مهـرولا في حـيرة مـن (شـوقي) وسـائر الطاقـم، نزلـت الـدرج

بالأسفل إلى مخزن الطحين المظلم مباشرة، تكشف لي ذلك النور مجددا لا مجال للفزع منه، حتى قابلني أشرت بيدي إليه لإمهالي فتحت كيسا من الطحين ورحت أفرش محتواه، في البادئ لم أفهم فكتبت أول عباراتي "هل أنت (ربيع) حقا؟" رد إلي "برقصته الكتابية "نعم تستطيع أن تتكلم فانا أسمعك ودع الكتابة لي" مسحت وجددت له أرضية موسعة" كيف جرى معك هذا يا (ربيع)؟"

-"أنها قصة طويلة، دعنا إلى طارئكم ".

-"هل خرج المدد لنا ؟"

-"كلا للأسف، فالانقلاب قد حل بالمملكة أيضا، لكني أسعى جهدي لإمدادكم من ناحية أخرى أنا والمعلم (برهان)"

-" هذا ما كنت أخشاه .. وهل بلغتكم رسالتي؟"

-"نعم، والآن ركز معي عليك التعجل بالمفاوضة مع ملاحقيكم، ولتأخذوا أعلى رتبهم ممن بأيديكم ولتوهموه أنكم ستنفذون كل أوامرهم، على شرط القبطان أن لا يطؤوا السفينة".

-"وبعدها ماذا سيحدث ".

-"إن تعمقكم إلى هذا الحد وسط البحر سار في صالحكم، والآن أظن بأن أقرب الأراضي إليكم هي الحدود 'الكانتية ' مع حدود 'أردمور'. "

-"لم أفهم شيئا "

-"لست مخولا للفهم بل بالمبادرة لصالحكم، فلتكن حجتكم إشراف الوقود على النفاذ هذا أن اقتادوكم، وان فعلوا فليقتادوكم إلى أقرب أراضيهم والتي هي إلى حدود 'كانتيا' حتى ....."

-"حتى ماذا؟"

-"لا شيء"

بعد مسحه للكلمة الأخيرة "حتى"، فهمت على أخي أنه محض بصيص أمل للنجاة، ومنحنا مزيدا من الوقت على الهلاك المبكر لم أبد الإحباط بملامحي، بل رددت" أنا سعيد بتواجدك يا أخي (ربيع)"

-"لا تقلق أبدا، سأكون معك دوما بفضل مساعدتي ووساطتها بيننا هذه الملائكية المنيرة المدعوة (فيروني) ...جامعة الطرائف... هكذا سمت نفسها. إن احتجتها فلتنادي باسمها الأول والآن انطلق إلى الاجتماع وأعلمهم بخطتك ".

انطلقت إلى قمره القيادة بسرعة أعلمتهم الخطة، نالت تأييد الجنرال وطلبت إذن المحافظ بتكليم الضابط ومفاوضته، أثناء نزولنا الدرج إلى قاعة الحجز برزت أولى القوارب من الجانب، وهي تقترب وجنودنا قد تواروا خشية نيران العدو، تضيق وقتنا فألزمنا الحاجة بالوقوف إلى الملامح الساخرة من الضابط المقيد .

-"ألم أخبركم مسبقا أنها مسالة وقت فقط.. وها أنتم في قبضتنا مجددا ههه"

-"اخرس ..جئنا لتكليمك بشان إطلاق سراحكم ومفاوضة رفقائك على ذلك"

-"إطلاق سراحنا؟ أنت تهذي، رفقائي لا تهمهم أرواحنا أتظنهم قطعوا كل تلك المسافة لأجلنا هه... إنما هدفهم موطئ قدميك هذا و من عليه كما تعلم" ...(يقصد الأميرة)

سيناريو كان واضحا من بدايته لم نستغرق مطولا بالكلام حتى دوت أولى القذائف بمحاذاة هيكل السفينة

عين (ربيع) بالمكان استفزت خاطره وأشعلت فتيله من مكانه ليبدأ تقليب الأجساد و التنقيب عن ضالته ينادي بأعلى صوته فزعا عن أخيه وحاله،

-" أيها الأمير .....أيها الأمير ....أظهر نفسك يا أمير" يشد الأول فيلتفت إليه و يفلته، ثم يشد ثان وثالث وهكذا يستقرأ وجوههم، وصراخه كمن أصيب بمس أو أذى، تسرب أغلبية المتسابقين خلال المسالك المختصرة يشتته ولا استجابة لندائه من الكم الهائل للمشتركين. .....هي جرأة مغامرين.....

على الجانب الآخر حوصرت السفينة ودوي قذيفة ثانية يصيب هيكلها العلوي، ومبادلة الحراس إطلاق النار بمعدات خفيفة لا تبلغ منهم شيئا، كان لابد من بلوغ قمره القيادة وإرغام الضابط على التكلم من مكبرات الصوت إيهاما بأننا سنخضع السفينة تحت قيادتهم.

يجادل الضابط "وكيف ستكون بقيادتنا؟"

أجابه المحافظ" على شرطنا قلت أن غاية أصحابكم هي السفينة، لكننا لا نأمن على من بالسفينة من وحشيتكم"

-"إذن حررني لأفعل قبل أن نغرق جماعة"

-"وذاك هو شرطنا ألا نسلمكم لهم، وألا يطأ أحدهم السفينة لكننا سنسير تحت قيادتهم إلى اليابسة"

-"هذا ما لن يفهموه البتة، وان كان بمقدورك فأقنعهم لأني لن أفعل"

تكلمت له: "اسمع أيها الضابط، نحن نعلم أن من يمسك لجامك ومن يتبعك هو أعلى منك رتبة بدرجات، وتعليماتكم الأولى أن تبلغونا إياه ...فلن يعجبه بأي حال واقعة هلاكنا جراء قراراتك الطائشة" واطئني من بالقمره على ذلك....

-"كنت مدحتك أنك صعب المراس، لكن لن يطول هذا حتى أكون شاهدا على جحيمك".

-"أضف إلى معرفتك أن الوقود شارف على النفاذ فلتنظروا أقرب أراضيكم لنرسو بها".

في تلك اللحظة بادرنا إلى تشكيل جدار من أسراهم وجنودهم المحتجزين، نحمل الراية البيضاء والضابط تناول الراديو، نحمد الله أن فارق البنية بين هيكل السفينة وقواربهم شاسع، ومبلغها ليس بالسهل، راحت حاملاتهم تجارينا حتى برز قارب قيادتهم، اقتدنا الضابط وصاحب الندبة مكبلين إلى واجهة تشرف على قادتهم بدأو بتبادل الإشارات،

التفت الضابط متكلما إلينا " لا إمكانية بالتحدث فالرياح لا تسمح والمكبرات لن تبلغهم شيئا، علي التنقل إلى القارب"

تلقى ممانعتنا بالإجماع وهذا ما جرعنه القلم، في محاولة ثانية طلب الإفساح لأحد القادة وذلك ما كان، حتى ارتقى السفينة أحد القادة يقلب أنظاره بأرجائها وكأنه يستطلعها تواجدنا بأطراف اللقاء ورفضنا انفرادهما، محادثة باشرها الضابط بلهجة مغايرة وهذا مانعناه أيضا وتقديراتنا بشأن أهمية السفينة لرأس الأفعى خاصتهم كانت في محلها، كان الأخذ والرد في مسألة الوقود أخذ الشق الأكبر من الوقت لكن

حجتنا وطمأنة الضابط لزملائه بأن تلك المنطقة التي سنرسو بها والتي بتقدير حديثه تقرب الحدود 'الكانتية' تحت نفوذهم، بها معسكراتهم وقواتهم تحتشد.

-" أخيرا أتفقوا على رأيك أخي" بعد نزول المرتزقة وتوزيع تعليماتهم الجديدة على قادة قواربهم، التف بنا القبطان مجددا ولا نعلم ما القادم، أما مسؤوليتنا الآن تضاعفت لتأمين السفينة ليل نهار حتى لا تجتاح مجددا.

استشعر الركاب ذلك ودب الفزع بينهم، ذلك ما حرك أحد أفراد الوفد الملكي إلى قمرة القيادة وهو رئيس الحرس الملكي فخامة الاسم تكفي بل فخامة جبنه تكفي، رفقة حارسيه الذين لم يفيدا بشيء، وكأنهم يحرسونه من العامة، لم يأتي بدعم معنوي أو شيء من هذا، بل باشر المساومة على روحه الغالية ويقوم بإلقاء الملامة بالعتبة... موشك على الخروج أنا من القمره، حتى اقتحمها حافظ الأختام يطلب رئيس الحرس لحضرة الأميرة، علّه سينال ما لم ينله هنا من تأديب أو تأنيب لفعلته وهو ما كان.

أنفاسي توحي بانهيار في القريب تعبا وإرهاقا "آه أخي ماذا تراك فاعل الآن؟"

.....

(ربيع) لم يفرغ من ندائه المتجدد بصوت عال رغم فزع العدائين بجانبه، ووصول تطمينات (فيروني)له بالمستجدات، تشتت الكوكبة واستعصت مهمة إيجاد الأمير، وعلّ الأخير لا يريد الانكشاف، أخذ بالتريث قليلا للتفكير في تعميد خطة أكثر نجاعة، ثم تكلم إلى خليلته "ليس هنالك

سوى حلين وأحتاج مساعدتك يا (فيروني)، أولا سآخذ بالتقدم وسط من تبقى من العدائين وأنادي مجددا باسمه، ولتسلطي تركيزك على من ينفعل أو يلتبس، إن لم نفلح فلتتحركي إلى القصر وتطالعي صور الأمراء ولتقاربيها بالمشتركين، ردت (فيروني)"حسنا فلتفعل..." استجمعت أنفاسي مجددا رغم التعب من قلة النوم والطعام ثم انطلقت على تهيئة (فيروني) لمجال أوسع نظرا ورؤية ، وهي تتوارى بقمم الأشجار وتسلطه على أوجههم وملامحهم...

انطلقت تسارعا ونداء الواجب "أيها الأمير... أيها الأمير... أظهر نفسك" ناديت باسم تلاه عليا السيد (كنان) ينسب إلى الأمير علة يؤتي أكله "يا بهاء استجب من مكانك" كررت ذلك وعلى بعد صفين من أمامي يتوازى شابان يتنافسان وقعت الشبكة على أحدهما لينكشف بملامحه، توقفت عن النداء برهة ثم كررت فأبرز الشاب شبه التفاتة "أوب... صدفة من ألف صدفة، الرجل بالمرقد قبل ليلتين، انه هو " لكن ينبغي على جامعة الطرائف آن تقوم بالشطر الثاني وبسرعة بينما أقيده بأنظاري المراقبة له.

لا بد أن ملك 'كسانيا ' قد ضاق صدره على ابنته رغم تقويه وإعادة تمركزه بالجنوب فأوفد بمبعوث إلى مملكة 'كانتيا' على الطريق الطويل لكنه سيتأخر حتما .

بدأت تخور قواي.. ودوار ألم براسي، نفذت إلي (فيروني) بجولة رفقتها بين جدران القصر، الإطارات المعلقة بالبهو لم تحو إلاّ صور للإسلاف وورثة العرش وصور ثمينة. كان لا بد من التعمق إلى الغرف الخاصة، غرفة

الملكة الأولى لم تحو إلا صور أبنائها وزوجها بألبومها، غرفة الملكة الثانية زينت بصور من الطبيعة، تذكرت إخبار السيد (كنان) لي بشأن هذا الأمير أنه انحدر من إمارة 'راسين' وقد سمعت بها مرة من الجنرال، وعله عاش بها رفقة والدته، "فان تحقق هذا فلا اثر له بالقصر"

وبينما تغادر جامعة الطرائف اصطدمت بصوت قدم من شرفة للطابق العلوي، لحن نادر وجميل، صوت البيانو ومعزوفة حزينة ..الفضول جعل (فيروني) تستقر إلى شجرة لتستوضح الرؤيا، فكان ذلك، الظاهر صاحب التاج في جلسة البيانو ... المكتب التحريري خاصته على الميمنة منه، وطابع الموسيقى الحزين لا يجعله يرف أو يتحرك، هي فقط أنامله جيئة وذهابا تهتم بالملامس البيضاء والسوداء، ينبعث من غرفته شرار الأسى، فتداهم جلسته عاملة من عاملات القصر تطلب استئذان أحدهم الدخول، فيشير بيده على إدخاله بينما يجلس إلى مكتبه، تناول مع الأخير حوار سريعا، فيشير له الملك أن يسبقه و يتردد عند الباب ثم يخرج .

حللت و(فيروني) إلى غرفته جدرانها لم تحوي شيئا، ولا اشتباه برفوف مكتبته لكن الأمر أهون وأبسط، بالدرج وتحت بعض الوريقات كانت الصورة المنشودة له وعائلته الثانية أو الثالثة لا أعلم كيف يرتبهم، صورة للملك وزوجته وفتى في العاشرة أو أزيد بقليل...

فتى أخر لم تختلف ملامحه بكبر سنه إذا قارناه بمشتبهنا تسريحة الشعر نفسها، وقياس الحاجبين وامتلاء الخدين، على الأقل أظهر ردة فعل بعد أن نودي باسمه، جسدي الذي أهمل تمارين التحمل الرياضية منهك

الآن بعد طول المسافة المقطوعة، وعيناي تميل إلى الانغلاق وقد تقلص عدد من حولنا، سواء لما سببه اختلاف إيقاع السرعة وتشتت الكوكبة، أو بالاختصار الذي فضله بعضهم، حتى كدت أنفرد برقابة المنشود لولا الشخصين اللذين يحولان بيننا ومسافة تقل عن الثلاثين مترا، لكني أخير استيقافه بالنداء مجددا " يا (بهاء) ..... (بهاء).... أيها الأمير " طبعت التعجب على أوجه المتواجدين، أما الأمير فراوغ وزاد من سرعته وقد نال مني بهذا، انطلق انطلاقة وكأنه أراح لها ليباشر العقبات، تراخيت خلفه أجر أقدامي أشعر بفيض الدم إلى رأسي ودوار يرج الأجواء من حولي، التقط أنفاسي إن حاولت رفعت أنظاري إلى أعالي الأشجار ستأخذني دوامة السماء، تريثت برهة أستجمع ما فتر مني وانطلقت خلفه مجددا بعد ما فصل بيني وبينه انعراج، ونحن بصدد مرتقا أعنف من سابقيه، ممر ضيق أحيانا يعترضك تزاوج جذوع الأشجار فتضطر للعبور بينهما، على الأقل هو مسار مدروس من لجنة المسابقة، تستمر جامعة الطرائف بتسليط أنظارها الكاشفة لي على الأمير لكن صاحب اللياقة مرق كالسهم من غير التفات،

فهو يخشى أن يكشف سره ويحرم ما بناه لسنوات، أوحت إلي فيروني بخطة، ستصيبه من خلالها بأشواكها فمانعتها ذلك، لكني طالبتها أن تدبر لي مسارا مختصرا يعترضه هذا بعد أن ينفرد بتقدمه عن الذين يليانه، و أخشى أن يكشفوا (فيروني) التي ستعترضه من أجلي بنورها فتغشيه التقدم، و ستساعدها خلفية الأرضية الرطبة وظلال هذه الغابة حتى أدركه.

نزفت جراحي مجددا وأخذت بالتباطؤ شيئا، حتى أستجمع مجددا كما من الطاقة أجتاح به الشجيرات والمسار الوعر، في حين تترصد (فيروني) اللحظة المناسبة وتشق لي مسارا.

وهذا ما حدث، لتقدم إلي بإسقاط حول المسار الجديد الذي سأختصر به تقدم الأمير عني وهي تتقدمني لتداهم أولا ..انطلقت بانكسار وتري لتقوس مسار الأمير، أجري وأتجاوز الشجيرات من طريقي ربما هي آخر ألفاظ صحوتي، لتتوافد لي أوهام داعمة من أخي أمي و(نرجس) (نرجس) التي تهذب كوابيسي.. أرى أطراف حياتي المستهلكة أشبه بقطعة بمسار سد بمحطتين ذهابا وإيابا، لتقبع بحد من حدود الأرض فتشكل مثلث متاهة نبضي وحواسي .

-"هاي (ربيع) واصل لا تسرح بعيدا" .

-"كم بقي يا (فيروني)"

- "لم يبقى إلا القليل"

بتقلص الميل بدأت تبرز فريستي، ليست بالبعيد أشرت إلى جامعة الطرائف باعتراضه فانكشفت له، جامد الحواس تصيبه بوميضها الشديد لو لا أني أرى بمنظارها لأخذت بما أخذ به، اخترقته بسرعة وسط الوميض أزيح جسده القوي خارج الطريق، وهو يضرب بكل ما أوتي من قوة جسدي المنهك حتى ارتمينا خارج حاجز الشجيرات لنتلقى تدحرجا من بعض الانحدار.

قمت ألملم شتات نفسي ...هو يعتدل و يمسح الغشاوة عن عينيه محكما قبضتيه لمواجهتي "إذن هذا أنت" رفعت يدي أستوقفه فتلاشت

سرابا بعيني ...أبلغ كلمة تقبع بلساني ألقيتها قبل الإغماء"...اا السيد كنان..." هكذا وانتشلني الظلام من تخاطري ومن بصيرتي ...استفقت بعد إسناد ظهري إلى جذع شجرة لأشهد عراكا بين الأمير يرفع عصا ويرشق بالحجارة مصدر النور الذي يصر على الاقتراب وقد حل الظلام، وبعد استرجاع عدة كلامي مع قدرة على التركيز، أخيرا تدخلت "أيها الأمير لا داعي لذلك... إنها لا تشكل خطرا" بعباراتي المترهلة كنت استطرقت انتباهه ليدنو مني تاركا ما بيده من حجارة.

-"وأخيرا استفقت ..هل أنت بخير"

-"نعم بخير الحمد لله ..أين نحن الآن؟"

-"بعد أن أغمي عليك تحسست نبضك وحملتك على ظهري لبلوغ المدينة، لكن الليل داهمنا ولا تزال تلك الكائن تلاحقني فقد أصابتني مسبقا بوميضها الشديد".

-"لا تخف منها فهي أليفة، وهي برفقتي كنت بحثت عنك مطولا أيها الأمير"

-"لا أحد يدعوني بهذا فلما تفعل؟ وقد أربكني هذا وسط المتسابقين"

-"أنت تخشى أن تكشف، وأنا بأمس الحاجة للمساعدة من والدك الحاكم ولولا هذا ما فعلت، فالسيد (كنان) كان أرشدني إليك وهو ينشد طيبتك وقد شهدت على ذلك من قبل.. موقفك بالنزل تلك الليلة "

-"اسمعني يا ....؟؟؟"

-" (ربيع)...اسمي (ربيع)"

-"لا يخفى عليك يا ربيع أني لم أتواجد بالقصر يوما، ولا شأن لي بأموره،

عشت رفقة والدتي بأمارة 'راسين' حتى فارقت حياتها وهي تنعي أخي الأكبر وتحمل نفسها ذنب وفاته".

-"آسف حقا سمعت أنك عشت ب'راسين' لكن كيف حدث ذلك؟".

أجابني منتفضا يرمى العصا من يده " انه والدي، المذنب بحقنا، أخذ أخي في سن مبكرة إلى تلك الحرب وعاد دونه ..."

-"أنا حقا أسف يا سيدي، لكني بدوري لا أريد فقدان أخي وهو الآن في ورطة، إن فقدته تعديا سأفقد أمي التي حزنت لأجله. والقضية قضية صلح بين مملكتينا 'كاسانيا 'و 'كانتيا'".

-"كيف تكون قضية مملكتين؟ ...من أين مقدمك أولا؟"

-"إنني 'كاساني' تعرضت المملكة لانقلاب من أحد أقارب الحاكم، وكذا السفينة التي على متنها وفد الصلح والأميرة المتجهين إلى مملكتكم من طرف قراصنة ومرتزقة 'أردمور' الذين تواطؤ على الانقلاب ..وأخي نقل في نداء التجنيد على متن تلك السفينة، أظن أنكم لم تسمعوا بهذا بعد؟"

-"متى حدث هذا؟"

-"منذ أيام، والآن يقتادون السفينة إلى منطقة ب"أردمور" اقرب إلى حدودكم"

-"كيف استطعت الوصول إلى هنا بتلك السرعة؟"

-"إنها قصة طويلة"

-"وكيف تعلم بكل ما حدث"

-عن طريق (فيروني) أو جامعة الطرائف، سمها كيفما شئت، تلك المنيرة هناك...خاصتي"

-"انك حقا غريب وتزيد الأمور غرابة "

-"لننطلق الآن إلى السيد (كنان)، وسأخبرك بالطريق كل ما تريد معرفته، لقد تأخرنا"

-"حسنا دعني أحملك "

-"كلا أنا بخير أيها الأمير، وهل جعلك الله لحمل الناس، بتلك الليلة تحمل امرأة والليلة حملي ".

-"لا بأس بذلك، لكن من فضلك لا تدعني بالأمير ..وبإمكانك أن تدعوني باسمي (بهاء)"

انطلقنا على نور(فيروني) الذي لا يزال يربك (بهاء) بين الفينة والأخرى، نعبر مختصر جديد بالغابة تفتحه جامعة الطرائف ويتبعها الأمير الذي يعلم بدوره الاتجاهات، أخذت أحاديثنا مجرى التعارف لكلا الجانبين من حياتنا الشخصية، أطلعته كيف أصبحت أطالع أطراف القضية وألم بها عن طريق جامعة الطرائف، وبداية لقائي بها في مكتبة السيد (كنان) تأكدت خلالها أن الأمير يعرف السيد (كنان) وجهتنا القادمة، وانه قطع شوطا كبيرا في التعايش مع العامة واكبر آماله تحسن أوضاعهم ومساعدتهم متى ما توفر بطاقته، انتهينا إلى المنبسط وفرغنا من السير بالغابة لتبرز لنا أنوار الشق الثاني للمدينة.

.....

انتهى طاقم أمن السفينة من تشديد الحراسة بأعلاها، وحجب نوافذها الموازية لمستوي القوارب عن الرؤيا حتى لا يطلع المرتزقة عن تحركات (شهاب) وجماعته بداخلها، ولا على مكان تواجد الأميرة ووفدها، وألا

يفزعـوا مـن بهـا مـن ركاب ومدنيـين.. الجـنرال يقـرب طاولتـه إلى الدرابزيـن، يـشرف عـلى قائـد المرتزقـة ويتحـداه أمـام أنظـاره يلتحـق بـه (شـهاب) ويجالسـه .

-" كنـت أشرت بالـرأي يـا (شـهاب) عـلى الأقـل لنُمنـح مزيـدا مـن الوقـت .. الجـو البـارد جعلهـم يسـكنون بالليـل حتـى اللحظـة، فـما ترانـا فاعلـون بعـد ذلـك؟".

-" يجب ألا نغفل عنهم، ولنأمل أن تتحرك 'كانتيا' لأجلنا".

-" 'كانتيا'؟.... وما علمها بحالنا، أصلا لما ستفعل من أجلنا؟"

-"لأجـل الصلـح، فنحـن نتحـرك إلى أقـرب النقـاط مـن حدودهـا .. و(ربيـع) قـد تحـرك لأجلنـا ليحشـد لنـا مـن 'كانتيـا' "

- " (ربيع) آخوك" بتعجب "كيف سيفعل؟"

- "لقـد تحـرك سـبقا إلى 'كانتيـا' وهـو مـن منحنـي تلـك الخطـة، أعلـم انـك ستسـألني كيـف فعـل، لكنـه يراسـلني بمعجـزة حتـى أنـا لم أفسرهـا بعـد المهـم انـه يسـعى مسـعاه لأجلنـا فلندعـو لـه "

-" متى حدث هذا؟"

-" منـذ الليلـة التـي أوقعنـا بهـا صاحـب الندبـة في أيدينـا، كان قـد تدخـل ينقـذني مـن عيـاره عـن طريـق جنـس ملائـكي يجسـد وجـوده ومحادثاتـه لي، لم يفسره لي لضيق الوقت، وحرج وضعنا، لكنه كل ما نملك"

حـرك الجـنرال ملامـح وجهـه بـين المسـتغرب والمصـدق المحتـار، ولم يضـف إلا أمانيـه بنجـاح الخطـة وتأكيـد مطلقيـة ثقتـه بشـهاب.

.....

أصبحت واسع الخيال وهذا بفضل القدر الذي جمعني ب(فيروني)، يخيل إلي تقلص أحجمنا أمشي على مسرح بالسطح الطري لكعكة الزفاف، أتجه إلى مركزها ببذلة سوداء نحو صاحبة الفستان الأبيض تمسك أطرافه وتغطي ملامح وجهها بما شف منه، ولا أعرف إلا واحدة بمقامها إن كنت صاحب التمثيلية حقا فسأنسب إلى من تجسد ذلك أحسن تجسيد صاحبة الطرف الثاني إنها (نرجس) ابنة السيد (كنان) وأمينة مكتبته.

فتداخلني (فيروني) مسرح أحلامي من حقيبة الظهر" إذن هكذا يا (ربيع) وأنت تخفي عني ههه"

-"وهل يخفى عليك شيئا من أفكاري يا مشاكسة؟" أنفلتت مني ضحكة ليتلقاها خارج تحاورنا السيد (بهاء).

-"ما يضحكك يا (ربيع) لقد وصلنا إلى المكتبة .

-"عفوا إنه من فعل (فيروني)؟" .

ففزع يراجع نفسه ويقلب ملابسه ومظهره "هل هو شيء بخصوص مظهري؟ لا بقع بوجهي؟"

-"كلا.. كلا .. هههه"

-"حسبتني الأضحوكة هههه"

لا أذكر انتظارا أحد لي بشغف إلا انتظار والدتي فهي كثيرة القلق و الفزع إزاء أولادها، لكن هذه المرة ومن خلال الزجاج المشف يبدو أن أحدهم أعرض عن النوم يقرر السهر بأريكة الاستضافة على نور الشموع يؤنس خلوته رفقة كتاب من جنة الكتب خاصته .

الطارق بالباب طرقا خفيفا السيد (بهاء) وأنا بجانبه، فتسارع وقع أقدام الآنسة (نرجس) إلينا تبينت وجهينا من خلال الزجاج ثم بادرت بالفتح بسرعة وارتباك، يبدو أن ما رأيته قبل قليل ليس سكونا إنما قلق مقيد وهذا ما يجسده أول ترحابها بالتساؤل" (ربيع) لقد أطلت الغياب وازداد قلقنا عليك..." بقيت مشدود الابتسامة إليها حتى انتبهت إلى وجود الأمير رفقتي فأعتذرت له بالترحاب "عذرا أيها الأمير مرحبا بك مجددا عندنا تفضل ..تفضل" أجاب السيد (بهاء) مكاني "أعذري (ربيع) فأنا سبب التأخير".

واتجه إلى الأريكة يجلس أما هي فتعترضني تنتظر كلماتي إليها لأطمئنها "نحن بخير يا نرجس هل السيد (كنان) لا يزال مستيقظا؟"

-"نعم هو بمكتبه سأعلمه بعودتكم، لكن أولا طمئني على جراحك ..."

-"أنا بخيركما ترين، سنتكلم عن ذلك لاحقا لا متسع لنا الآن أرجوك فلتعلمي والدك بعودتنا".

وعلى عادتها تنطلق في هرولتها وعقلي يراجعني "لقد قلقت عليك يا (ربيع)، لتنتفض (فيروني) من حقيبة الظهر تسابقها "سأمنحك رؤية ملامحها التي تخفيها عنك" حتى أسقطت لي على وجهها الذي يتهلل سعادة بعودتي .

تركت (نرجس) تلهو رفقة (فيروني) وأغلقنا جلستنا أنا والسيد (كنان) رفقة الأمير في محاولة إقناعه بالتدخل والتوسط لدى والده الملك .. هذا بعد أن تعذر وسيط السيد (كنان) في إبلاغه الملك، لخروجه الطارئ عشية وهذا ما كنت رأيته بأعين جامعة الطرائف منتصف نهار.

وبعد صمته الطويل صرح الأمير بأن مشاعره اتجاه والده لا تزال قائمة ولم تجف رغم ما يكنه له من حقد، ففي النهاية يبقى والده وأنه لازال يتطفل عليه ويراقبه ويفعل ذلك مجازفة بالقفز إليه من الجدران المحيطة بحدائق القصر، فيعتلي أحد الأشجار التي تشرف على غرفته و يستطلع تحركات و تصرفات والده و أحيانا يتصادف مع معزوفاته بالبيانو فيستريح لذلك وأردف قائلا: "أعلم أن والدي لا يزال مقيدا بفعلته التي تراوده دوما، والتي تحمله الشعور بالذنب والتقصير، فتعصف به أيام شديدة الحسرة و تحمله على مراسلتي وتجديد ذلك مرارا وتكرارا حتى يومنا هذا، فالعودة إليه والى القصر تكفر عن نفسه شيئا، لكني أرفض في كل مرة ولم يشأ كشفي عله يرى تقبلي لهذا الصنف من الحياة ".

مداخلتي إليه "علك أغفلت شيئا يا سيد (بهاء) ... أو بصيغة أخرى هل تدري كيف تعرفت إليك اليوم وسط كل أولائك المتسابقين؟"

أجابني مأخوذ العبرات "كلا يا (ربيع)".

-"من خلال صورتك أنت ووالدتك وأخوك، فقد أحتفظ بها والدك الملك بدرج مكتبه، هذا ما أوفدتني به جامعة الطرائف".

لم أجزم بشيء من موقفه ولم أخذ شيئا من لسانه علي أخطأت وضغطت على جرح به، لأنه استغرق بكاء فحاولت الاستدراك وربت على كتفه، بعدها أخذت إذن مغادرتهما بإشارة من السيد (كنان) والتحقت بالآنسة (نرجس) على الأريكة، لترتمي إلي جامعة الطرائف بهمسة من داخلي، مفادها انتظار الآنسة (نرجس) لتطارحني بنتيجة الاجتماع و تخليفي الأمير رفقة والدها بالمكتب، فطمأنتها أنهما سيلتحقان بنا، كانت تعرف

كيف تزيح ثقلي، وبمزحة منها

"يبدو انك تستحدث عادات جديدة في عائلتنا الصغيرة. يا (ربيع)"

استفهمت منها " أية عادات يا (نرجس)"

-"العشاء المتأخر هههه"

يبدو أنها ووالدها قد فضلا الانتظار على تناول العشاء بمفردهما، فأخذت إذنها لتوفدني تجهيز المائدة معها ومساعدتها، فتبتسم وتهز رأسها بالموافقة.

-"هل تعلمين يا (نرجس)؟.. إعداد الطاولة يذكرني مشاركتي عائلتي حولها والتي طالها الشتات، كم أشتاق إلى تلك الأيام والدتي وأخي" سكون من غير تكليف تجسد فانتصاب قامتها القصيرة تسدد إلى عيني، انه نزال أرواحنا لدواخلها من أجل الانبعاث، كأني لبثت دهرا في جلسة القرفصاء بزنزانة وقيود، لا ينفذ النور إليها إلا من ثقب صغيرة تعبر منه يرقة استكملت أجنحتها بفصل الربيع تجدد لي عهد الحياة .

تحرر ساكني بكلماتها " ستجتمعون مجددا بمشيئة الله يا (ربيع)".

فانحدرت بأنظاري عبر خصلة من شعرها حتى أعرضت، و أحسست بسرابها يمد راحة اليد إلى وجهي يصوبه مجددا نحو مجرة عينيها، أما التهاب المقلاة على النار يداخل برأي مغاير، لينتشلها من أمامي فتنطلق مخلفة حدودا للرسم و الألوان .أنا الساكن لم أتخلف عنها بعالم الوحي إلى حقيقة تعاركها مع نار المقلاة بمفردها، أخمدت تلك النار ولم تخمد نار داخلي إلا بانفلات ضحكاتها وإطلاق العنان لفتوتها ...

تستند إلى الطاولة مفحمة الضحكات وتمرر خصلاتها حول أذنها بعد أن

زرعت الابتسامة على وجهي، والضحية هو فتات الطعام على الأرضية....

وبعد أن استجمعت أنفاسها لوحت بأصبعها لي "هذا هو مصير العشاء المتأخر هههه".

التحق الأمير و والد (نرجس) إلى طاولة العشاء بعد ترتيبها مجددا، كنت أول الجالسين بعد أن أفرغ السيد (بهاء) دفينه، استقام لقرار إنسانيته وحمل أملا لفه حوزته بمحاذاتي توقف يستند كتفي ويزفه إلى أذني "غدا سأصطحبك إلى القصر يا (ربيع)". رفعت أنظاري إلى السيد (كنان) يهز برأسه تأيدا، انتهت الوجبة على الأمل الجديد، بعدها انصرف السيد (كنان) إلى مرقده وأنا صحبة الأمير إلى غرفة الاستضافة، لكن الآنسة (نرجس) تستوقفني قبل عبور الرواق" (ربيع) فلتنتظرني حتى أفرغ من الآنية"

-" لا بأس سأنتظرك في الردهة"

لم أشعر بلحظات الانتظار حتى قدمت بعدة الإسعاف مجددا تنظف جراحي وتعيد تقطيبها، وأنا منشغل في أنفاسها حتى أعلنت انتهائها "لقد انتهيت فلتذهب لترتاح الآن".

-" (نرجس)..."

- "نعم..."

- "هل كان لك أصدقاء في حياتك؟"

-"بالطبع أصدقاء وزملاء، منهم رواد المكتبة ومنهم زملاء أيام الدراسة والطفولة الذين يعودوني بين الفينة والأخرى هنا ".

-"كنت أحسب الكتب هي صديقك، الوحيد فهي من تلقى النصيب

الأكبر من اهتمامك، أم انك تلمحين أن كل من يرتاد المكتبة سيضحي صديقا لك؟"

- "أكيد"

-" وما بال من فجر حدثا تاريخيا بمكتبتك؟"

- أجابت بعفوية مطلقة تنظر بعيني" لقد قدم إلينا بفصل من مسماه، وفصل الربيع وافر البسمات، ضيفنا سيحظى بمنزلة ترضيه حتما وسيظل مقربا".

-"لن يُنسى صنيعكم هذا يا (نرجس)، ربما تكون هذه آخر ليلة أقضيها هنا، لكني سأحمل رواية من طيبتكم وأقصها على الوالدة والأحبة"

سهوت في قسماتها محدثا نفسي "حتما إذا عدت للديار سأحدث الوالدة عن الجميلة (نرجس) ..."

-"سأدعو لك التوفيق، ولا تنسى زيارتنا متى ما أتيحت الفرصة" .

-"هذا وعد وشرف لي، فلتذهبي لتأخذي نصيبا من الراحة الآن، سأراك صباحا ولتكن ليلتك سعيدة"

-"وليلتك اسعد يا (ربيع)، فلتخلد بدورك للنوم ولا ترهق جسدك سهرا، فهو يحتاج الراحة".

ارتميت مغمض العينين إرهاقا إلى محاكمة العقل" لا بأس أن تضمد لك جراحك يا (ربيع)، لكن أن تقع في تلك المسألة فليس وقتها كلية، عليك إماطة سلوكيات الانجراف السريع هذه من رأسك، فالعزف البطيء أليق، تباشر بإعجاب، ثم يتبادر العشق فتهذب الحروف وتعيد طلاء جدرانك، حتى إذا وقعت في الكمين فلتحرص أن يكون حبا ...حبا متبادلا

وليس هوسا، كي لا تضيف جراحا إلى جراحك"

-"فقط أجبني يا عقلي... ماذا لو كانت شفقة فقط؟ حقيق أني فقدت والدا، لكني لم أفقد أما تقتطع من نومها لتعيد لي الغطاء متى ما انزلق، فكيف فعل بحقها السيد (كنان)، وقد غادرتها أمها الحياة وهي برعم؟".

هذه المرة يستيقظ الأمير حرصا منه وإبكارا فيعمد لإيقاظي بجانبه، كانت (نرجس) على عادتها جهزت الإفطار وطرقت الباب تدعونا إلى الطاولة ثم غادرتنا بسرعة، فرغنا من ذلك في سكون، تكلم خلاله الأمير فقط وبعض المراجعات من السيد (كنان) أما أنا بقيت مستغرقا في (نرجس) أراها على غير ملامحها البهيجة.

الأمير" انه يوم اختتام فعاليات الألعاب الشتوية، لنبكر إلى القصر قبل أن يغادره الملك نحو التجمهر، فهو من سيشرف على توزيع الجوائز للفائزين"

جمعت بعدها أغراضي و اتجهت إلى ركن جامعة الطرائف حتى صبَّحني الببغاء كعادته من ظهري، التفت إليه و سيدته لا ابتسامة اليوم، جو من آخر أيام الخريف خيم على وجهها.

-"هل قلت لها شيئا أحزنها البارحة يا (ربيع)؟" تمرر بيدها شيئا من عدة الإسعاف "اعتني بنفسك يا (ربيع) وعالج جراحك جيدا ...رافقتك السلامة" غادرتني مكسرة قيودي، ولم أستطع إيقافها. الأمير ينادي بالتعجيل والسيد (الكنان) إلى جواره.

-"(ربيع) بقيت الإجابة على اللغز الذي طارحتك إياه"

وهـو يمـرر يـده مـوازاة مـع القطـرات مختـصرا "صراع الخـير والـشر أميـد أمـا الـشر فيـكاد يغالـب، لكـن الخـير دومـا يـلاشي ويتغلـب".

خـرج الأمـير يسـبقني وأنـا في إثـره، لم أكلـم (فـيروني) بعـد، سـهوا عنهـا، لكنهـا أدركت مشـاغلي.

-"كيف حالك (ربيع)؟"

-"أنت أدرى بحالي (فيروني)"

-"ما ذاك بيدك يا (ربيع)؟ "

ابتسمت وسألتها "هلا فعلتها لأجلي".

انطلقـت في الحـين تنتشـل الرسـالة مـن يـدي تحملهـا إلى مـن اسـترقت النظـر قبـل قليـل بالـرواق، انفصلـت عـن أعـين مراسـلتي حتـى لا أرى ردة فعلهـا، يداهمنـي بذلـك نـداء السـيد (بهـاء) يطالـب التعجيـل، توغلنـا عـبر أزقـة الحـي العتيـق مـرورا بالسـاحة متعـددة الأنشـطة.

-"هـل تعلـم يـا (بهـاء) كيـف بلغـت العاصمـة خـلال يـوم اختـصر مسـافة يقطعهـا الراجـل في مـا يقـارب الشـهر؟".

-"أنـا حقـا لا أدري كيـف فعلتهـا؟ وكنـت سـألتك عـن هـذا سـابقا، لكـن باعتقـادي مـن يفعـل هـذا هـم ركـب المناطيـد أو الطائـرات الشراعيـة".

أشرت لـه بإصبعـي أن ينظـر إلى الأعـلى، أسراب مـن المناطيـد تتوافـد كأنهـا اسـتبقت بينهـا.

-"إذا كنت محقا ..."

-" هو كذلك ..."

سـلكنا ممـرا ملتويـا بـه درج ينتهـي إلى بوابـة القـصر، أشـار لي السـيد (بهـاء)

بمكان الساحة الاختتام من ذلك العلي، تقدمنا بعدها إلى البوابة و ما استغربني حقا هو تجاهلنا من طرف الحرس بإجابات تنفي تواجد الملك، هذا ما يؤكد أن (بهاء) أوقع السيادة مطولا وهو يعتبر من العامة الناس كما قال، ولا يعلم سره إلا قلة، وجه رسالة معهم رسالة لإعلام الملك بتواجده، طبعا لم يفصح سوى عن أسمه الأول، لكنهم رفضوا الرفض القاطع..

الحل في نظر الأمير بعد طول انتظار هو القفز من خلال السور، تتقدمنا (فيروني) بداخل القصر لتنفذ لي بمكان الملك، و هو كعادته في مكتبه ينفرد بزيه الرسمي هذه المرة، لكنه يشرد في صحوته يضع تاجه على صولجانه.

كانت (فيروني) أغفلت كلاب الحراسة المدربة، وهذا ما حدث بعد اجتيازنا الجدران، فتنبهت لنا الأخيرة وانطلقت بملاحقتنا محدثة الجلبة، تفطن لها الحراس فتبعوا أثرنا، أمنت جامعة الطرائف مسارا نتوارى به عن الأنظار حتى بلغنا غرفة الملك، لم تكن بمقدمه إلاّ العاملة، فاقتحمنا الغرفة عنوة ثم أسندت البابا بكتفي أغلقه، ووقع أقدام الحراس أدركوا خارجه. شخص الوالد في ابنه والإبن في أبيه بعد أن التقت أنظارهما، بدأت مداهمة الحراس للغرفة فأوقعوني أرضا، يوجهون أسلحتهم نحونا حتى تدخل الملك مجاهرا بصوته يعطي إشارة لمغادرتهم كلهم، وانفرد بابنه ليرتمي هذا الأخير إلى أحضانه أمام ناظري، فضلت مغادرة الغرفة ليكتمل انصهار الجليد بينهما في سكينة ووقار، أوصدت الباب القائم على رواقه الحراس، لكنهم لم يتعرضوا لي حتى وصل وزير الملك يحقق

معـي، فأخبرتـه بمـا هـو أحـق بمعرفتـه وتكتمـت عـن بعضـه، طـال لقـاء الملـك بابنـه والـذي أظـن انـه فاتحـه نيابـة عنـي بقضيتـي و هـذا مـا كان ، بعدهـا اسـتقدمني (بهـاء) للدخـول مجـددا إلى حـضرة الملـك أنـا والوزيـر، والـذي أحسـبه يـوم تتويـج الملـك بالسـعادة، فهـي تنبثـق مـن طالعـه.

اسـتكملنا أدوار الحديـث عـن القضيـة برمتهـا، والتـي كان حقـا للملـك بالاقتنـاع بهـا كبـادرة لتحسـين العلاقـة بينـه وبـين نجلـه الـذي وفـد إليـه بمطلبـه الأول لـه بعـد طـول غيـاب، كـما يحـق لـه ممارسـة وظائفـه كأمـير، ولتحقيـق ذلـك استشـار الملـك وزيـره حـول مـن يضـع عـلى رأسـها...

فأجابـه الوزيـر:" سـيدي لنضـع عـلى رأسـها أحـد قادتنـا الذيـن يتواجـدون هنـا بالعاصمـة"

فيقاطعـه الأمـير:" كلا سـيدي.... فلتجعلنـي عـلى رأسـها أنـا و(ربيـع)" تكلـم الملـك: "وكيـف أفعـل يـا بنـي ولم يمـض عـلى لقائنـا إلا سـويعات؟"

وقـد احتجـر الدمـع في عينـي الأمـير علـه تذكـر ذكـرى أخيـه المتـوفى "أرجـوك سـيدي فلتكتـب لي وصايـة عـلى جندنـا بالحـدود حتـى يتحركـوا معـي"

اسـتغرق الملـك عـلى مكتبـه زمننـا ثـم أشـار إلى وزيـره أن يأتيـه القرطـاس والختـم... كتـب الوصايـة ولفهـا يقدمهـا إلى ابنـه "هـا هـي الوصايـة، سـتتحرك رفقتـك كل معسـكراتنا الحدوديـة، ثلاثتهـم" ثـم نـادى عـلى وزيـره "أيهـا الوزيـر"

-"نعم سيدي"

-"وفروا لهما مركبا لنقلهم على السريع إلى المعسكرات".

تعجبـت للأمـير يرفـض مجـددا وسـيلة التنقـل الموصى بهـا ألينـا، ثـم أشـار إلي

يطمئنني بسبابته يوجهها نحو الأعلى، ففهمت عليه.

وبعد أن تقمص المهمة خرجنا مسرعين من الغرفة وهو يحمس الأجواء بابتسامة "فلنأخذ قسمتنا من مغامرتك يا (ربيع) سننتقل أيضا بالمنطاد"

-"وأين نجده ...؟"

-"سنستأجر واحدا.. فقط اتبعني"

بالمكتب الملك يزفر نفسا عميقا إلى وزيره، ثم يمد ذراعيه مدا وكأنه ألقى حملا عن كاهله " كنت لأمنعه فقط لسبب واحد، وهو تجربة أخيه السابقة... لكنه يترجاني إياها وهو الذي قدم إلي بمحض إرادته يزيل عني تأنيب الضمير... تأنيب الضمير الذي لازمني لسنوات، وإني أراه الأوحد من بين أبنائي قد استطاع الفوز بقلوب الرعية ممن عرفوه وعايشوه" ثم قام يستقيم و يكمل كلامه " وذاك الذي قدم من 'كسانيا' ما هو إلا أخ خيره له و قد رأيت كيف كان ينظر إليه"

-"فعلت جيدا سيدي أهنئك بذلك، لكن لا يجب أن نتركه لوحده سنتبعه قادتنا، ف 'أردمور' قد تمادت كثيرا"

-"بل أظن انه حان وقت زوال كيانهم وقرصنتهم".

-"سيدي... عليك أولا برعيتك فهم بانتظارك في حفل اختتام ألعابهم الشتوية"

-"حسنا أسبقني الآن لتجهيز الركاب".

-"حاضر سيدي...".

إلى الهضبة الخضراء المعشبة التي استوطنتها المناطيد، منهم سابق ومنهم لاحق، رحت أتفرس بأنظاري عله يظهر (سامر) ورفقائه، أما الأمير

فانطلـق يسـاوم مـن يعرفهـم ليأجـر لنـا منطـادا. دومـا عـلى منديـك أن يكـون ملوحـا بوجهـك حتـى إن لم تنتبـه لـه يأخـذ بالانطـلاق نحـوك ليفاجئـك، هكـذا فعـل (سـامر) يربـت عـلى كتفـي، التقيتـه بحفـاوة اسـأله عـن (وجيـه) و(شـهير) فأشـار لي عـلى اتجـاه تواجدهـم فقـد اصطحبـوا الطائـرات الشراعيـة، ولتقديـره أنهـم أطالـوا ولم يرجعـوا بعـد وان دوره اليـوم هـو المناوبـة عـلى العـدة والطعـام، تبادلنـي تسـاؤل بالأحـوال والمجريـات حتـى لحـق الأمـير وقـد دبـر لنـا راكبـة.

استودعته مجددا السلام لصديقيه وانطلقت والأمير رفقة الأجير طبعا.

لم أنـس جامعـة الطرائـف إلى حقيبـة ظهـري، أمـا 'كانتيـا' فمازالـت تفاجئنـي بتعـدد تضاريسـها واتسـاع مراعيهـا، وتعـدد ثرواتهـا الزراعيـة والحيوانيـة ... جـار تحميـل الشـغف الجديـد، يحمـل مـن أغنيـة بصـوت الأمـير مـن تراثهـم الشـعبي يطـرب أسـماعنا بهـا خـلال المسـير.

يـا طـارق ببابهـا تمهـل أنفاسـها ورقتهـا، بهـذا يكـون (فضيـل) عـلى وعـد وصييـه، يعـود الوالـدة، يتسـوق لهـا ويقـضي عنهـا بعـض حاجياتهـا وكذلـك تفعـل بنـت الجـار بعـد الفـراغ مـن دراسـتها.

.....

وصلنـا بحاملتنـا بعـد مسـيرة نهـار تقريبـا في ضبـاب أعتـم، غلـب عـلى الطابـع الرسـمي لتلـك المنطقـة الحدوديـة، تحركنـا بالمـوازاة مـع السـاحل الـذي يتوفـر عـلى أسـطول مـن القـوارب الدفاعيـة وثكنـات عسـكرية، مـن طبيعـة هـذا الصنـف الجاهزيـة لأي طـارئ، نزلنـا بالقلـب النابـض لـه أيـن إدارة المعسـكر توجهنـا إلى خيمـة القيـادة مصحوبـين بـإذن مـرور يحمـل

الختـم الملـكي، اجتمـع القـادة بحـضرة الأمـير في استشـارة وتطبيـق بغيـة التعجيـل، عجلـوا بطارئهـم أولا مفـاده أنهـم اسـتحدثوا خطـا دفاعيـا بسـبب تكاثـف الضبـاب، ارتـأى البعـض التمهـل للحـاق جنـد المعسـكرين الثـاني والثالـث، لكـن الأمـير أصر عـلى التحـرك، ومـن لحـق منهـم فليتبـع أثرنـا بانتظـام في خطـوط خلفيـة، لم تكـن الحـدود إلا مرمـى لأنظارنـا، لـو كان الجـو صحـوا عـلى حسـب الكشـافة لكـن الحجـاب الضبـابي ومشـارفة الشـمس عـلى الغيـاب لا توفـر الرؤيـا الواضحـة ...

هكـذا وجهـزت لنـا خيمـة ضيافـة أنـا والأمـير حتـى نقـضي ليلتنـا، الأمـير الـذي لا يقـصر جهـدا.

ذعـر يحـل بجامعـة الطرائـف كأنهـا تحتـضر، هـذا مـا التمسـته مـن انكماشـها بالحقيبـة تـأبى الخـروج، ظننتـه جوعـا أو عطشـا لكنهـا ليسـت كائنـا يتغـذى، سـألتها عـن حالهـا هـذا، فلـم تجبنـي وأخـذت تحـذرني و تشـدد عـلي ألا أقـترب مـن الحـدود غـدا، لقـد حـدث شيء ينـذر ليتصلـب جسـمها إلى الرمـادي ويخبـو نورهـا كأنهـا تشـققات مـن أرضيـة حمـم، وهـي تكـرر إلى مسـمعي عبـارة واحـدة "أنهـم نفـذوا إلى الأرض"

-"من هم؟" فلم تجبني. واستمرت بتكرير ذلك.

قـدم الصبـاح وحمـل الأمـير لـواء القيـادة بعـث الفرقـة الكشـافة فلـم يطيلـوا حتـى عـادوا بمـا ليـس في الحسـبان، مفـاده أن الحـدود مفتوحـة عـلى مصراعيهـا، لا أثـر لجنـدي مـن 'أردمـور' ، أمـر الأمـير بالتقـدم فحملـت حقيبتـي، لكـن لم يكـن حـال (فيروني) ولا مزاجهـا يسـمح بالإعتـماد عليهـا في نقـل أخبـار السـفينة وأسـطول المرتزقـة، تقدمنـا وسـط ضبـاب لم يتـلاش بعـد،

حتى أدركنا الحدود راجلين بخطى حذرة، تتبعنا الشاحنات والعربات المدرعة، لا أثر للحراس كما أبلغنا الكشافة مبكرا ..وقبل أن نخطو أول خطوة لاجتياز السياج فزعت (فيروني) بالنفاذ من حقيبتي، تفر و تصيح داخلي بصوت مدوي زعزع دماغي، وانبعاث شديد لأشعتها وهو ما أربكني وأربك من بحذوي، ردة فعلهم إطلاق النيران، ليتولى الأمير طمأنتهم بشأن الكائن الغريب الذي أرعبهم وقد خرج فجأة من بينهم، أخرني ذلك قليلا، أحاول الاتصال بها مجدد لكني فشلت وتخلفت حتى نبهني عن ذلك (بهاء)، لنلتحق بالصفوف مجددا، من أجل أخي الذي يقترب، بهذا كنت يئست كل اليأس من إمكانية محادثته مجددا أو إدراك مكان تواجده، سلكت الكتائب الطريق الممهد بجوار الساحل بخطة سميت خطة المنجل؛ هي تحرك على اليابس مثل المقبض وتحرك أسطول قواربنا كجزئها المعدني المقوس، كانت لا تزال تفصلنا مسيرة 40ميلا عن الميناء الذي يقدر أنها سترسو به السفينة العظيمة، ولم نقدر وقت وصولها، نشق البر ولم نعترض حتى اللحظة، ازداد الوضع إبهاما، حرائق التهمت المزارع والبيوت والحظائر، خراب تام 'بأردمور' بين ليلة و ضحاها، لا فكرة عما حدث لا وجود للجنس البشري أو الحيواني، هذا التحقيق قدمه الكشافة الذين داهموا ثلاث حرائق مررنا بها، وكذا إفادة القادة بأن كتل الضباب هذه على غير عادتها استهلكت أجزاء من البحر، وهو ما يربك الجنود، جادلت الأمير بخصوص الخطة التي ستطبق إن أحكمنا السيطرة على الميناء، فاستفهم ذلك من أحد المدبرين للحرب ليعلمنا بضرورة مداهمة أسطول القراصنة بعيدا شيئا ما عن

الساحل، لأنهم إن أدركوا الساحل فستحاصر السفينة بطوقهم وتمطرها مدافعهم .

وراح يشرح الاستراتيجية الأنسب خاصة بفقداننا لممول الأخبار مثل (فيروني) يقول: " سنرسل قوارب ملاحة كشافة تأتينا بأخبار ظهورهم، وحتى يدخلوا مجال الضباب الذي امتد إلى البحر يبدأ تحركنا، تأتي الأوامر لقواربنا فتباشرهم بهجمتين جانبيتين تداهم تركيزهم عن السفينة وتوجه استهدافهم الهجومي نحوا القوارب المهاجمة يصدونها بالمياه، ولنأمل الغلبة عليهم "

أطال عنه (ربيع) وانقطع التواصل بينهما، والإمداد بالتعليمات غيب عنه في الطور الحاسم، فالخشية هلاك من بالسفينة نتيجة خطته، استنفذ صبره كله وامتلأ قلقا وعليه أن يتشارك بعض همه ذلك مع الجنرال وإن لم يصلا بذلك إلى شيء عدا الدعاء، وحمل طاقم الأمن بالأروقة على نقل الركاب جميعا إلى مقدم السفينة وإحاطتهم بدرع من الحاويات لتجنيبهم مرمى النيران.

لو أردت رسم أبسط و أسهل لوحة 'لأردمور' فأظنها ساعتها، ما تحتاجه فقط هو التظليل بمعنى آخر قلم رصاص سيكون كافيا، فقد غيب عنها النشاط بأشكاله ولا آثار، وبالتكلم عن الجند فالمتبقي من مسافة راح ينافس بينهم رعب دواخلهم من خلال زفير الأنفاس، و تحت غطاء مطر طالما أعتبر طالع فأل، سكنت الحرائق وتوحد الصف مجددا، لتشحن المعنويات من القادة بأمر من أميرهم لحين إدراك الميناء، فهو قيد التصرف وما على الجند إلا الإحاطة به و توظيف مغانمه من قوارب

ملاحـة ومعـدات للخطـوة القادمـة والقـادة يسرعـون الوتـيرة والتدبـير .
لا أمـان عـلى ظهورنـا ولا تنسـيب لنجاحنـا نغـالي بانتظـار إشـارة، مـن أيـن؟
مـن تلـك الميـاه الغامضـة وضبابهـا، ثـم تليهـا الخشـية مـن مصـير أحـد .
صـلاة الخـوف والتجـرد تضرعـا لربهـا مـن فرشـة أرض لزجـت بطينهـا وتحـت غطـاء سـماء أمطـرت مـن سـحابها.
ارتـداد بركـن المكتبـة مـن الخزانـة يحـدث صريـرا بمـا تمعـدن مـن جوانبهـا يسـتقدم (نرجـس) الفزعـة بخطـى حـذرة، تتجـرأ فتفتـح الصنـدوق لتجـد (فـيروني) تصـدر صوتـا أشـبه بالأزيـز مـن احتضارهـا بآخـر الأنفـاس، وكأنهـا تعـود إلى تشـكيل الغشـاء القـشري مجـددا، غشـاء فقسـها مـن السـبات، وقـد سـبق ل(ربيـع) رؤيـة ذلـك مـن مراحلـه الأولى بالمخيـم، قبـل أن تغـادره بغمـوض، والآن قـد بـدا فعليـا، فسـارعت عـداءة الأروقـة إلى وشـاحها مـن متكأهـا لتدثرهـا وتلفهـا بهـا، و بارتبـاك تحـاول أن تسـتخبر منهـا عـن (ربيـع) وأحوالـه علهـا تبـدي شـيئا، لكنهـا في الحـرج مـن عمرهـا، ليسـتقيم خـط النبـض هـذا مـا تقصتـه (نرجـس) مـن انسـدال جفنيهـا العريضتـين، آن لظـل السـيد (كنـان) أن يسـقط عـلى ابنتـه بعـد أن أدركهـا رغـم إبطائـه عنهـا، وهـي تحـاول جهدهـا لإنعـاش جامعـة الطرائـف شـبيهة الرضيـع الـذي لفـظ أنفاسـه، ثـم دنى مواسـيا يحمـل يـد ابنتـه لتفتـح نعـش (فـيروني) أو صنـدوق سـباتها كي ترجعهـا إليـه مجـددا، كان قـد شـخص كل شيء قبـل أن يبـادر.
"حتـى الآن نحـن بأفضليـة السـبق تطبيقـا لمقولـة الحـرب خدعـة" .. ..
.....
هـا هـو أسـطول القراصنـة يقبـل صحبـة السـفينة العظيمـة إلى واجهـة ضبابية

لمجابهة مصيرية يجهلونها، يحدث ارتباك بين قادة الأسطول فكانوا بين ممهل ومبادر، في الأخير اجمعوا التقدم ناحية مينائهم، كشافينا أبلغوا أسطولنا الحربي على إتمام استعداداته دون لفت أي انتباه.

التواقت هو احتشاد أحاسيس أحبتك حولك تحمسك في ميدان المعركة، و التي بالكاد تستشعرها حتى إذا هربت منك خصلات شعرك بارتداد مياه البحر على وجهك وأنت تعارك قذائف العدو، أو ذلك الصداع ألارتجاجي الذي سيصيبك من وقع الأصوات المدوية، لتزامنك الوالدة بتضرعات في حفظ ولديها و علها (نرجس) تهيج المشاعر بأغنية الإنبعاث حتى أثقلت جفنها لتسلم للدموع لينة وجنتيها، نيراننا تسلط على العدو والعدو يسلط على هيكل السفينة ما بقي من وقته، علّه يغرقها لكنه لم يبلغ منها شيئا إلا خروق علوية بمعدنها الصلب، وهكذا انتهى العدو صاغرا بقبضتنا فقتلهم وأسرهم لم يستغرقنا الكثير، تجارة الحرب كتجارة المال تدبير بمنطق التاجر الناجح والإحصاء من خسائرهم عظم عن خسائرنا.

.. ملخصها انتصار الأمير (بهاء) وجيشه على مرتزقة 'أردمور' بإقليمهم الغامض حتى الآن، وتم إنقاذ الوفد الملكي والرهائن، ثم أتيحت الفرصة لتوأمي 'كاسانيا' (شهاب) و(ربيع) أن يلتقيا مجددا، رفع الأول قبعته من أعلى السفينة عرفانا لأخيه وهو يسايره متن القارب وقد سايره قبلها في المصير المعقد، وموعدهم على الشاطئ بعد لحظات... إلى حد اللحظة وقفنا على مجسدة للخيال والتي وفقت التفات أحد التوائم لشخصيته وبعض سعادته الضائعة على حد قوله فماذا إن كان هناك شطر من

الخيـال التبـس ليمتحـن أحبتـه فيـه؟.

هكـذا ينـزل ركاب السـفينة في تزاحـم إلى أرضيـة الميناء يفتحـون رواقـا لأميرتهـم احتفـالا بنجاتهـم وسـط معسـكر الجيـش 'الكانتـي' آن لجنـوده التأميـن أن يأخـذوا بفضولهـم ويتراخـوا عـن حراسـة هضبـة الميناء الضبابيـة، أمـا مـن كان يديـر المسرح فبـادر بالتحـرك أخـيرا، ليغنـم أكـثر فتلـك الجنـود ذوات الأعـين الناريـة و مطاياهـم قـد اعتلـوا الهضبـة وسـط كتلـة الضبـاب التـي تخفـي ملامحهـم يتفرسـون كتلـة بشريـة سـكنت مـن رعبهـا في فـترة وجيـزة انقضـت، وحلولهـم بالميناء قـد اكتمـل، فـأول الخيالـة بـرز يحمـل الرايـة الممزقـة وصـوت صهيـل حصانـه أول المنذريـن، التفاتـة فـزع ورعـب يسـكن مجـاري الـدم، شـدت الأبصـار إلى عـدو قـدم مـن عـالم الأمـوات، تأخـر في تـدارك الأوامـر التـي داسـها الجنـد مخلفـين ثغـرات في الجـدار التأمينـي الأولي، لم يبـق إلاّ تشـكيل خطـوط دفاعيـة ثانويـة في الإنحـدار، والحصـار يزلـزل بوقـع القادمـين، صوبـت الأسـلحة ولم تعـط الإشـارة بعـد في وقـع هـزات الأرض مـن ثقـل الخطـوات القادمـة انتشـلت حالـة الطـوارئ الأمـير (بهـاء) وقادتـه المحيطـون بـه مـن حصـة التقديـم مـع أميرة 'كاسـانيا' ووفدهـا، (ربيـع) يفـارق العنـاق ويدفـع بأخيـه إلى التقـدم خلـف الخطـوط الدفاعيـة للاسـتيضاح.

انتهـت سـكينة الأنفـس بالـصراخ والتدافـع إلى الخلـف بحدود الميناء الضيقة، وأول المقذوفـات رؤوس 'أردموريـة' مدميـة فصلـت عـن الأجسـاد، تعنـي ألا شـوط بهـذه المعركـة للمطالـب والتنـازلات، أخـذت تلـك اللحظـات بالتهـام جسـارة أغلـب الجنـد، ليتقـدم بعـض القـادة خطـوط جندهـم بخطـوات

بغيـة تثبيـت عزائمهـم، لكنهـم لم يسـتطيعوا تثبيـت مـن بالخلـف مـن العامـة الذيـن اختـاروا التفـرق عـلى كامـل الإتجاهـات للنفـاذ مـن الحصـار المفـروض، لكـن لا مجـال لذلـك فالعـدو يتطايـر شررا أمامهـم والبحـر مـن ورائهـم، توجـه البعـض إلى سـلالم السـفينة العظيمـة يلـوذون بالهـروب فاسـتوقفهم دوي الأبـواق مـن الهضبـة، (شـهاب) يسـتفسر مـن (ربيـع) وفي خلفيتهـما (شـوقي) و(جـاد) يتطـاولان عـن الرقـاب لمـد أبصارهـم.

إن هـي إلاّ لحظـات حتـى اندلعـت الحـرب الفعليـة فبـدأ الـتراب يتشـظى بفعـل الرمـاح المنغرسـة بـالأرض، الرمـاح والخطافـات التـي امتـدت بسلاسـل موجهـة لتخـترق أجسـاد البـشر وتسـحب تلـك السلاسـل مـن عمالقـة العـدو، شـفط أغلـب جنـد الصـف الأول أمـام ناظـري التوأمـين، مـا بقـي مـن العـوام يهرعـون في عـثرات، ومنهـم مـن يقـاوم المـد البحـري.. أمـا الصيـد مـن الجنـد فلـم تخلـف إلاّ أثـار جـره عـلى الأرض مصحوبـة بصراخـه ينقطـع بانقطـاع سـيل نيرانـه حـين ينغمـس في الضبـاب، تـوارى مـا تبقـي مـن العسـاكر خلـف الشـاحنات والعربـات وكل مـا مـن شـأنه أن يمنعهـم الإصابـة بتلـك الرمـاح، أمـا (ربيـع) و(شـهاب) رفقـة صاحبيهـما تفرقـا عـلى الحشـد يدفعانـه ليتراجـع إلى القـوارب، يداخلـون بـكل طاقاتهـم يأتمنـون ظهورهـم بالسـتار النـاري الـذي تحدثـه العسـاكر، يسـاعدون في حمـل الصغـار وإحاطـة المنهكـين مـن السـفر الأوامـر والتحذيـرات تتعـالى مـن الخلـف.

.....

كل هـذا تعيشـه (نرجـس) في حلـم يقظتهـا تحـس بـشيء يحـدث لكنهـا لم تجـزم بشـأنه.

تزلزلت الأرض من وراء (ربيع) بعد اجتياح فرسان العدو للخطوط الدفاعية و إسقاطها.. أضحت كل المواجهات انفرادية والغلبة فيها لفرسان لا تخرق أجسادهم الطلقات النارية، اتضحت ملامحهم وأخيرا بعض نقاط ضعفهم التي صرح بها (جاد) يصرخ "اهربوا إلى المياه.... اهربوا إلى المياه وانجوا بأنفسكم" لا نعلم مصير أمير 'كانتيا' ولا وفد 'كسانيا' السفينة ليست ملاذا فقد عبر إليها الفرسان ولا مفر إلاّ للقوارب، لكنها كدست عن أخرها، ترى الرجال يحركونها بكل قواهم بعد أن نجو ببعض أسرهم.

(شوقي) صديق أخي ينادي علي ويصرخ بعد أن رأى أخي (شهاب) يسقط أرضا "(ربيع)... (ربيع).. لاا...لا تدع (شهاب) في قبضتهم" شلت حواسي لوهلة، أرى أخي منغمس بطين الأرضية، حررت نفسي إليه أقاوم الانزلاق من تحتي حتى أبلغه، إنه وصية أمي.

حاولت انتشاله من غيبوبته بعدة صفعات على وجهه الموحل طينا فقد انقطع أنفاسا، اصرخ وأقاوم الدموع في إنعاشه حتى استقام أحد الوحوش أمامي يحدق إلي بأعين كالجمرات، فارس يرتدي خوذة تحجب ملامحه ويركب خيلا مدرعا تنثر البخار من انفها مرفقة بصهيل متوتر، التفتت يمينا يسارا لم أر من الواقفين إلاّ قلة، وسيول النيران تتداخل ثم عدت أنظر أمامي أرى الوحش يمهل ويتمهل، وأخي في حضني، مكثت شيئا مغلق العينين رافعا رأسي إلى السماء فلا حول ولا قوة لي به، ثم سمعت وقع أقدام الخيل يلف و يبتعد ففتحت عيني ثانية أراه يبتعد، سارعت بارتباك أجر جسد أخي أفر به حتى لا يداهمني آخر، ظهر في المقدمة (جاد) صحت إليه ليساعدني في حمل أخي، فسارع يسنده معي وفي

تحركنا نتقدم إلى القوارب مررنا بجندي مصاب قد نزف كثيرا ينادي بأعلى صوته، تقدمنا عنه قليلا ثم أحسست بالشفقة لحاله فنظرت إلى أعين (جاد) أوكله العناية بأخي وأثبته إليه، ثم عدت إليه ما أسندته حتى تقيأ دما لا أمل من عيشه، ثبتت ذراعه إلى كتفي وقد غاب عني (جاد) وأخي وسط الضباب، رحت أتقدم شيئا فشيئا وكل ما فعلت ازداد تثاقل جسد الجريح، أخيرا برز الساحل رأيت (جاد) ينقل أخي إلى القارب ويشير للأمير باتجاهي، ما رآني حتى بدأ يطيل خطواته ليخرج من الماء ويتحرك اتجاهي، استقمت للحظة أجمع أنفاسي، ثم زفرت زفيرا عميقا فداهمني صوت في آخر لحظاته لشيء انطلق بسرعة يقدم من الخلف يحمل صريرا انتهى إلى جسدي فسكن يخترقني، برز رأسه المدبب من مقدم جسدي ما انحنيت حتى تصاعد الدم من فمي.

بالمكتبة تزلزل الركن فمالت الرفوف من هول ذلك كل الميل وتناثرت الكتب والسلاسل، تقدمت (نرجس) بسرعة لتواجهها، تثبت نفسها إلى الأريكة تحاذر أن تقع عنها إحدى الخزانات، والأرض من تحتها ترتعش ارتعاشا تنذر بميلاد جديد رحم لانتفاضة غضب، خرج السيد (كنان) متباطئ الخطوات ليلتحق بابنته، كل هذا اعتمد على دقات قلب (ربيع) التي تأخذ بالتباطؤ، بوابة التخاطر تفتح مجددا على نبتة ساحلية التبست ملامحها بالوحل، تتقدم يد (ربيع) لتلامسها والعدو يسحب السلاسل فيميل الرأس إلى الخلف يلتقط صورة الأمير (بهاء) يقاوم الانزلاق ويصرخ لنجدة الخليل، تلك الصورة تعتم بعد أن نزف (ربيع) كثيرا وسحب إلى الضباب، صدحت أول صرخات (فيروني) تهب

بقـوة تكـسر القيـود وتكـسر مـا ثبـت مـن زينـة الـصرح العلمـي، السـيد (كنـان) يضـم ابنتـه وينحنـي بهـا، فتعبر مـن فوقهـم شـهابا تخلـف الأشـعة، فتخـترق واجهـة المحـل الزجاجيـة تشـظيها، ثـم تنطلـق برقـا إلى الميناء، كل مـا انتظـر مـن تكامـل حـدث بانطلاقتهـا تلـك التـي تمـر بمقربـة السـطح المـائي تشـقه بسرعـة خارقـة، وسـط ذلـك النـور شـكل آخـر ل(فـيروني) قـد اكتمـل أقـرب إلى طائـر -الماكنجـاي- اسـتطالة جسـدها و تعضـل أذرعهـا وامتـداد أجنحتهـا مـدا حتـى انتـشرت، وعـلى حـدود تلـك الأجنحـة تنبـت إبـر جديـدة بصلابـة عـاج الفيلـة.

بلغـت الميناء في وميـض كالـبرق ورفعـت الكابـح بصرخـة أطلقتهـا تعلـن وصولهـا، وعلـه أول مـرة تسـمع فيـه صوتهـا لمـن هـم خـارج نطـاق التخاطـر، ثـم اسـتقرت عـلى ذلـك البعـد تعلـو ميـدان المعركـة بكثـير تشـتمله فيـه وتحيطـه بأنظارهـا، أنظارهـا التـي تشـف الضبـاب وقـد اسـتكملت عيناهـا نـارا عـلى نـار تهـزم بـه جمـرات الوحـوش و تقزمهـم بـه، و أول مـن تسـدد عليـه الاسـتهداف هـو مفـترس (ربيـع) الـذي لا يـزال يجـر بجسـده و يسـحبه بتلـك السلسـة المشـؤمة التـي اخترقتـه مـن ظهـره تسـتنزفه، اسـتطاعت كسرها بتعويـذة ولم تجـزم بموتـه مـن حياتـه، أصبحـت الأرض رقعـة مـن فضاء، هـذا مـا تجسـده أعـين الوحـوش وهـي تنظـر إلى الأعـلى متناثـرة فيـه كالنجـوم .

مـن ثـم كانـت (فـيروني) أول المبادريـن فضربـت بجناحيهـا تحـدث زوبعـة تـلاشي بهـا بعـض الضبـاب، فنفـرز الوحـوش عـن البـشر ينظمـون صفوفهـم مجـددا، وهنـا بـرزت أنيابهـم وجحظـت أعينهـم، يبـدو أنهـم قـد أخفـوا ذلـك الطـور مـن التحـول إلى الأشرس ولم يظهـروه في مواجهـة عـدو أضعـف هـو

الجنس البشري رغم أسلحته وعتاده، وقد أفلت الكل منهم ما بيده من ثقل تفرغا للمواجهة وبخار أنفاسهم يندفع اندفاعا من خوذهم.

فزع الجند بهذا وهم في قلة تحيطهم جثث ضحاياهم، فبادروا بالتراجع إلى الساحل كي يفسحوا الميدان لعدوين أشرفا على بعضهما البعض، أما قوارب العامة فمنها من تقدم ومنها من تخلف لالتحاق الجند الذين أخذوا بالتراجع أو للأمير الذي يأس من نجدة صديقه (ربيع) وهو يتحسر لذلك.

وجه المتوحشون رماحهم إلى السماء في صيحة واحدة تنافس صرخة (فيروني) السابقة، ثم تقدم قائدهم برمح يعادل ثقل رمح المدافع البشرية التي تستعمل لاختراق البوابات، وبقوة يمينه المهولة قذفه وهو يمتط الحصان باتجاه جامعة الطرائف، لتجتنبه الأخيرة في آخر اللحظات وكذلك ردت (فيروني) بإبر جناحها في رمية مركزة أوقعت من حوله وصرخت صرخة جامحة،

لا أحسب أن لها طاقة بهذا الكم من الوحوش، رغم أفضلية الجناحين وقد أحاطت بهما المجال الجوي.

في تلك اللحظات التحقت وحدات عسكرية حديثة، ولم تبلغها بعد التحذيرات عن قيامة الميناء في فارق زمني قصير خلفهم عن سابقيهم وهم في ورطة الآن، لا فسحة لهم بالتراجع وقد التفت لهم نصف جيش المتوحشين، وجهلهم كل الجهل عن مؤشرات هذا العدو، وهم يرون الكم الهائل من جثث رفقائهم وقعت ضحايا بالساحل ...وبتعويذة التحم الضباب مجددا ينذر بوقعة ثانية. حليفان ضد عدو توسم قوى جهنمية.

بعدها بلحظات استيقظ (شهاب) من غيبوبته وهو متن القارب محاط بزميليه يسألهما بصوت متقطع وينظر إلى الأمير (بهاء) يستند ركبة بهيكل القارب ويستقيم بأخرى يسدد أنظاره ناحية الميناء ليلتقط شيئا، وما هي إلا ومضات النيران التي يحدثها سيل الرصاص العشوائي وصراخ يجهل مسببه.

بالميدان استراتيجية تقطيع جديدة استحدثتها الوحوش لتمزيق البشر و بهذا لم تسلم أجنحة (فيروني) أيضا من التمزيق، وقد استأسرت لرماح وشباك العدو تصرخ بأعلى صوتها تنظر نظرات حانقة إلى (ربيع) المرمي على علو ليس بالبعيد تنتظر انبعاث أنفاسه.

وهكذا سيتحول جسد (ربيع) بعد لحظات إلى كتلة ماس لا تخترق، دعه يغط في حلم رائق،

{"(نرجس)... (نرجس)" .

-"نعم عزيزي"

-"أنا جائع، دعي عنك ذلك الكتاب وأتني بلقمة أسد بها رمقي" .

-"تمهل قليلا بعد"

-"ما هذا الإهمال الذي يزداد تطورا يوما بعد يوم... و قد طلبت منك قبلها تجهيز نفسك فنحن على موعد لزيارة أمي "

-"قلت لك امنحني بضع ثوان"

-" أخشى انك لا تنصتين وقد فرغ صبري منك .."

قام في ردة فعل يريد بها ذلك الكتاب الرث حتى يمزقه "أهذا سبب إهمالي؟"

اقـترب منهـا ودنى نحـو الكتـاب كي يلتقطـه، فاسـتقامت حميـة تـذود عنـه في وضـع دفاعـي رهيـب وهـي تبتسـم في وجهـه لتجنبـه بلوغـه، وقـد أمسـكت بـه مـن وراء ظهرهـا، ثـم طوقـت ذراعيهـا حولـه تقيـده بعنـاق حـار وطبعـت عـلى خـده قبلـة جريئـة لم يستشـعر طعمهـا مـن قبـل قبلـة بنكهة الغضـب.... ولمـا اسـتأمنت لـه قدمتـه إليـه دفعـة واحـدة تحـشره إلى صـدره ثـم بـدأت تغـادر وهـي تذكّـره.

"إنها الوصية الأخيرة من ذلك الكتاب" .

تدفـق الـدم مجـددا مـن بـين شـفتي "ربيـع" في تسـعل يسـوي مجرى أنفاسـه، فتسـلل ذلـك المنظـر رهيـب مبـاشرة إلى جامعـة الطرائـف مـن بـين أقـدام الوحـوش الواقفـين في حصارهـا، تـرى مصابـا مـن الوحـوش فقـد ذراعـه يجـر سـيفه يتجـه نحـوه (ربيـع) ليجهـز عليـه.

الجمـوح الكامـن ب(فـيروني) قـد اسـتعر أخـيرا، وبصراخهـا الـذي انتقـل في هيئـة شرارة عـلى السـطح المـاء و حتـى اسـتوى بالأرجـاء، خلـف زوالا لشـحن التنافـر فتكتـل المـاء في طـود عظيـم بظهـر المجدفـين مـن تلـك القـوارب التـي تحمـل الأمـير (بهـاء) و(شـهاب) الجريـح، أصبحـت كألـواح ركمجـة تعلـو الأمـواج العاتيـة المتشـكلة بسـلام، فتتجـه تلـك الحاملـة الآن لتطبيـق عـلى ميـدان المعركـة بالسـاحل، كي تكتسـح تلـك الوحـوش المسـتفحلة بكتلـة مـن المياهالمالحـة، ولمـا أدركـت السـاحل في نهايـة موشـكة لـن يجـدي الالتفـات إليهـا ولا الفـرار منهـا، تفطنـت (فـيروني) لقرينهـا فلفـت لفـة إعصـار تمزقـت بـه أجـزاء مـن أجنحتهـا كي تتحـرر مـن الرمـاح والخطافـات التـي قيدتهـا مـبرزة التعصـب، وبالوجيـز حملـت الجريـح وشـقت الجـلاد القائـم عـلى

رأسه إلى نصفين، انتقلت من ذلك نسمة مرتدة بقمم الأشجار في تكامل خطي نحو الوالدة، ونفذت إليها مموجة الستائرتوقع ما بين يديها من صورة وإطارها حملها ذلك على الالتفات ناحية الشمال،
قبل أن يغمى عليها كليا...

.....

رد البحر مياهه إليه مخلفا السفينة العظيمة في متكئ يمينها، وحطام لأجزاء الميناء بأكملها، وفي مراجعة أخيرة للساحل من طرف (شهاب) والأمير، رست القوارب مجددا بعد الصحوة من الضباب وتوسط للحطام في حصيلة محصاة من الجولة بميدان المعركة السابق، لم يعثر به من شاهد على ضحايا الوحوش ولا أثارهم شيئا أم أن ما تبقى منهم مطمور تحت الرمال المنجرفة .....

استقام (شهاب) بأنظاره أمام خاتمة (ربيع) المرهبة، خاتمة لم تكن في الحسبان والأدهى أن جسد (ربيع) لم يشب بشائبة قط، فلم تنله رمال الشاطئ ولا مياه البحر وقد استطاع جسده أن يحتوى كجنين الرحم وسط عاكسة الأشعة الثابتة، استخلصت من صلب ياقوت مشف أمتد جذرها طوليا بالأرض ولن تسلم به أبدا.

****